عمر كامل

ثقب فى قاع النهر





ثقب فى قاع النهر

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

عمر كامل

ثقب فى قاع النهر

رواية



الكتاب : ثقب في قاع النهر
رواية

الكاتب : عمر كامل

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الثانية : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ١٨٢٦١/ ٢٠٠٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-507-3

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد عبد الفتاح حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر

(١)

ـ غابت الشمس يا زينب.

ـ أتكره الشمس؟!

ـ احبها وهى تسقط على جميع الأشياء ما عدا رأسى حينئذ أكره قسوتها وقلبها الذى لا يخمد لظاه.

أمسك قدمها اليمنى وقال بحرارة:

ـ قدم أسيوية فاتنة فى قارب بائس.

أشارت إلى رأسه بشعره المجعد وقالت بحنان:

ـ رأس إفريقى ينتمى إلى قبائل التكرور.

غاصت ببصرها فى البرج الهائل الذى اندلعت الأضواء من المئات من نوافذه الأنيقة التى تطل بكبرياء على النيل وهو يطوق جزيرة الزمالك بسكون ووداعة واستسلام.

ـ أشار إلى فيلا قائلا: تساوى آلافًا من القوارب.

ـ لا تمزح.

ـ لا أمزح.

ـ تتهكم... وحتى لا تستمتع بالمزيد من إحساسك الطبقى الزائف بإحراج الآخرين بفضح ما يخجلهم فانا لا أخجل من هذا القارب مصدر رزق عائلتى وبيتهم وكل أحلامهم فحيث تضع أقدامك كانت أمى تدحرجنى فى لفافة من الخيش الملوثة بقشور سمك البلطى أول شىء وعيته ولمسته.

ثم استطردت قائلة:

لم نملك بيتًا مثل الذى يملك منها أبوك تاجر الغلال اثنين فى بولاق الدكرور وبولاق أبو العلا.

ضحك إسماعيل حتى اهتز القارب بعنف:

- حبيبتى زينب أنت تعلمين أن أحدهما مهجور والآخر تسكنه زوجات أبى وإخواتى وأنا لا أملك إلا ليسانس الجغرافيا.

قالت فى تأفف: هيا نتجول بقارب فرح حول جزيرة الصفوة.. تجيد التجديف؟!

قبل أن يكمل القارب الصغير جولته حول جزيرة الزمالك فوجئ بضوء باهر يتدفق من زورق آلى سكنت محركاته وضحكات مختلطة بأصوات يتميز بها سكان الجزيرة العربية بمقاطعها الحادة، كحبات رمال ساخنة تحملها رياح الخماسين الصفراء المقبضة.. ترك إسماعيل المجداف واضعًا يده على عينيه محاولاً التخلص من الضوء والمباغتة، انسحب الضوء كاشفًا عن الزورق، ورآهم خمسة من الشباب وفتاتين.

قال أحدهم ذو شارب كثيف:

- نتبادل.

أشار إلى زينب:

- إننا نراقبك منذ ساعة.. لم تسأمها.. لك اثنتين ولنا واحدة.

علقت زينب قائلة:

- لا تأبه بهم.. إنهم سكارى.

أجاب ذو الشارب.

- لسنا سكارى يا فاتنة.

قال وسقط بعينيه النهمتين على ساقيها العاريتين.. انتبهت زينب وغطت ما تعرى من ساقيها بطرف ثوبها.. جن جنونه وقال بغطرسة:

- لا داعى للمماطلة نعطيك ثمنها ذهبًا.

قال هذا ونزع عن عنقه سلسلة من الذهب ومد يده اليمنى بها وقال: تزن نصف كيلو.

رفع إسماعيل المجداف يبغى عقابه فسقطت السلسلة الذهبية فى الماء.

صرخت إحدى الفتاتين بهلع تسب إسماعيل.

- يا مجنون يابن... كنت أنا أولى بها.

احتك الزورق الآلى بالقارب بعنف وانطلق يعدو على صفحة النيل بثقة واندفع بركابه ذوى المال والشهوة وانسحب القارب يحمل زينب وإسماعيل وهو يجدف بانكسار متجهًا إلى شاطئ بولاق، وقلبه يئن بمشاعر اليأس وهو يهمس: يا نيل كم من الإفك والبهتان يختلط بدمائك العذبة.

(٢)

- آسف يا عروستى الجميلة لم أقدم لك بيتًا ولا حفل زفاف يليق بحسناء الوراق.

- لا تأسف فالنيل بيتنا.. ضفافه والماء الغزير.

ونحن، أنا وأنت ننتمى للعصر القادم حيث لا زيف ولا بهتان كما تقول.

سألتنى أمى صباح اليوم:

- متى سيتقدم إسماعيل لخطبتك؟؟

- بماذا أجبت؟

- عندما يزف للنيل عروسه.

- وكيف لم تميز عرق المرأة من عرق الفتاة.. ما أعجب أمهات أيام التحاريق فقدن القدرة على التمييز بين الأشياء.

رمقته زينب بدهشة وهو يستطرد:

- جدتى كانت تعرف الفتاة من المرأة بمشيتها ورائحة عرقها.

عندما اقتربا من حارة سارى عسكر أشار إلى نافذة مضيئة من بيتهم المتهالك المهجور وقال:

- يبدو أن الشيخ سعد التهامى مازال مستيقظًا يجتر أوراده.

ضحكت زينب بقلق وقالت:

ـ ولماذا تقطع خلوة أخيك؟

ـ أين المفر والنهر مملوء بالخطر. وبيتكم مملوء بالسذاجة الممتزجة بالدهاء العقيم وبيتنا الآخر يحتله نساء وأبناء أبى.

دفع الباب الحديدى المحلى بنجمة سداسية من النحاس فأحدث صوتًا كالنحيب المكتوم. أضاء فناء المنزل العربى الطراز فظهر حطام النخلة التى طالما حدثها عن تاريخها والتى أحضرها جده الكبير من أرض تهامة، استمتعت بعض الأجيال بتمرها والأجيال الأخرى بكراماتها.

سمعا صوت سعد الأجش الذى لا يخلو من نعومة وهو يلوهما:

ـ ألم تسأما عبادة الأوثان والتجوال فى مرابض الطاغوت؟!

اهتزت لحيته السوداء والقت بظل قاتم على جلبابه الأبيض وهو يحملق فى وجه زينب المتألق بالأنوثة:

ـ كل ما فيك ينتمى إلى عصر الجاهلية والانحطاط ما عدا اسمك.

تدخل إسماعيل وقال هازئًا:

ـ اسمع يا سعد كنت شاهد زفافنا الشرعى.

ـ وقفت بجانبكما لنهزم الشيطان ولكن يبدو أن مازال للشيطان سلطان مبين عليكما.

أشار إلى شفاه زينب المخضبةبطلاء أحمر ساخن وصدرها الأبيض وقد تعرى بعضه مشبعًا بالخصب.

ـ استرى عريك يا زوجة أخى.

أسر إسماعيل فى أذن شقيقه بكلمات فكت على أثرها أسارير وجهه بابتسامة غامضة، ثم أحاط كتفى زينب بذراعه وهو يقودها خارجًا ويقول لها: هيا إلى صومعة العشاق فالشيخ ينتظر بعض أتباعه.

***

اتجها إلى حجرة فى نهاية البيت تعرف زينب جيدًا أرجاءها حيث قضت ليلة زفافها الأولى فى أحضان إسماعيل. حملها ووضعها على

السرير ذى الأعمدة النحاسية وانقض على فمها الأسيوى الدقيق وهو يقول: يا سليلة المماليك سنظل نعمل حتى الفجر.

شهقت زينب بصوت مبحوح بالبهجة والحب وهى تقول بإعياء يجب أن أكون فى الوراق قبل الثانية عشرة فالفقراء لهم تقاليد يحكمها دوران الأرض حول نفسها والشمس والقمر والحجارة، مغيب الشمس يحمل الخطر دائمًا.

- والخلاص أيضًا.

نظر فى ساعته وتطرق إلى سمعه صوت سعد يؤذن لصلاة العشاء وبصوت له زفيف سعف النخيل، فقال:

- إذن غابت شمس يوم الجمعة الموافق الحادى عشر من أغسطس من عامنا هذا إلى الأبد ومازال أمامنا أكثر من ثلاث ساعات قبل عودتك إلى الوراق.

(٣)

غادرا حارة سارى عسكر والساعة تتجاوز الثانية عشرة بعد منتصف تلك الليلة من ليالى الصيف. هرولت زينب وإسماعيل في أثرها يترنم بصوت عذب ربما ليثبت لها أن صوته أكثر جمالاً من صوت أخيه الذى أطرته زينب وهو يترنم بأوراده:

- ياليل.. ياعين.. يا.. ايل.. يا آمون.

- مازالت بك قوة لتغنى؟

- وأنت مازالت بك قوة لهرولى.. إننى أغنى لآلهة العبرانيين المزدوجة فهم قد غنوا لايل وآمون معًا نوعًا من التوفيق بين إله العبيد وإله السادة كدأب العبرانيين دائمًا منذ أن ألقى بهم التاريخ فى حياة شعوب الأرض فأصابوها بمرض الجذام فى عقولها وعواطفها وجعلوا من زيف الخرافة قانونًا دمويًا لا يفلت منه حتى الأجنة فى الأرحام.. يريدون

ضمان الحياة الدنيا بالتملق لإله سادتهم المصريين وضمان الآخرة بالدعوة لا لهم ابل.. هؤلاء العبرانيون لصوص التاريخ ومزورو العقائد.

تراجعت زينب وقالت:

- حبيبى لا تجهد عقلك.. فلا وقت لتهويماتك.

خرجا إلى الشارع العريض وعندما وقع بصر زينب على السور الحديدى الذى يجرى خلفه النيل أسرعت لتعبر الطريق وهى تقول:

- سأجدف أنا هذه المرة إلى الضفة الأخرى.

علق إسماعيل بانطلاق:

- ينتظر الناس سيارة تسير بقوة الحضارة ونحن ينتظرنا قارب يسير على صدر النيل العجوز بقوة سواعدنا الهزيلة.

نزلت زينب الدرج الحجرى مسرعة ثم وقفت فجأة وهى تصرخ مذعورة:

- أين الماء؟!

سمعها إسماعيل وقال ومازالت روح الدعابة وكراهية بنى إسرائيل تعمر صدره:

- سرقه اللصوص.

تراجعت زينب وكادت تصطدم بإسماعيل:

- إننى لا أمزح.. انظر.

فرك إسماعيل جبهته.. إنه لا يحلم، إن ما يراه حقيقة فالأضواء التى كانت تأتنس بالمياه غابت وتبددت فى القاع الأسود الخاوى.. لم تعد بالنهر مياه واختفى القارب، قبض على ذراع زينب كأنه يخشى فقدها هى الأخرى. أخذا يعدوان بجوار السور الحديدى يؤازر عدوهما الشك واليقين والحب، هى الشوق يدفعها والرغبة إلى رؤية وجه إلهها الذى لم يغب عن عينيها منذ وعت عيناها التمييز بين الحق والضلال وهو التجول فى مسرح هواه الغالب عشق حبيبته روحه الخالدة زينب لا يمكن أن يختفى بهذه السهولة ويتسرب غيلة ويكسر قلب حبيبته لبه وفؤاده

وحياته. بلغا كوبرى قصر النيل وصوت أنفاسهما التى سحقها الحدث له ارتعاشة مقبضة تقطع صمت الليل اللاهى ويطل الخوف من الحدث الجلل الكابوس الذى لازمهما ويزداد استفحالاً كلما ألقيا نظرة بين فينة وأخرى عبر السور يراودهما الأمل واليأس من رؤيته مرة أخرى يجرى فى جلال وسكون.

نظرا من فوق سور الكوبرى إلى الهوة العميقة الفارغة وسقطت فى قلبيهما النظرة فلم يريا سوى شق متوحش أسود عملاق لم يكتف بالتهام المياه وإنما يتحين لحظة للانقضاض على الضفاف وابتلاع الهواء وقتل الجميع ظمأ واختناقًا. هل هى القيامة التى طالما هدد بقربها الوشيك سعد التهامى! اصطدما بذعرهما فى جندى يحمل على كتفه مدفعًا رشاشًا، أصابه الهلع عندما سقط مدفعه من أثر الاصطدام وخطر له أنه مجرد من سلاحه بالهجوم الخاطف فاستند إلى السور الحديدى استعدادًا للمقاومة وعندما رأى مهاجميه المزعومين يكادان يسقطان تعبًا وخوفًا وأن أحدهما امرأة استرد شجاعته وغيظه والتقط مدفعه الرشاش الملقى وشهره فى وجهيهما محذرًا من الاقتراب أو الهرب أو المقاومة، ولم يقتنع أنه لا يجابه أعداء مجردين من كل الأسلحة.. قادهما إلى خيمة عسكرية تقبع فى الجبهة الغربية من الكوبرى منتشيًا بالنصر ولا يدرى أن دماءه وانفاسه قبل سلاحه أصبحت فى قبضة عدو لا يرحم، لا يرى، عدو حقيقى يهدد عمق جيوش ويبيد أمة. استقبلهم ضابط صغير السن سأل جنديه بعدم اكتراث:

- ماذا فعلا؟!

لم يترك للجندى فرصة للإدلاء بأقواله وشمل إسماعيل وزينب بود مشوب بالمكر وخمن أنهما ضبطا يمارسان ما أثار حياء الجندى الساذج واستراح إلى استنتاجه وقال:

- أعرف حرارة نزوات الشباب ولكن الحذر واجب.

استاء إسماعيل للكلمات العادية الغافلة وأجاب باقتضاب:

- إنها زوجتى.

ضحك الضباط لما اعتبره مراوغة ومحاولة للإفلات من مأزق المتعة المختلسة.

وبأسلوب المقاتل الذى لا مانع لديه من الحرب فى أرض منافسه لثقته بالنفس قال مناورًا:

- عروسان فى شهر العسل.. الصبر جميل حتى تصلا عشكما.

لم يجد لدعابته من صدى سوى الوجوم والحزن فاستطرد:

- أعرف أزمة المساكن.. أجل.. لولا التقاليد العسكرية الصارمة لتركت لكما الخيمة حتى الصباح.

إنه مازال سادرًا فى أفكاره التافهة وكل الأشياء اشتعلت فيها النيران ولا يملك حتى الرذاذ ليطفئ به اللهب الذى يمسك بأطرافه، طلب من الجندى إعداد أكواب الشاى مشترطًا عليه أن تكون من المياه النقية وليس من مياه النهر.

انهمرت دموع زينب واختنق صوت إسماعيل بالبكاء لذكر النهر دمائه وكادا يصيحان فى وجهه: أين ماء النهر؟ ولى زمن السخاء والبطر والحياة السهلة اللينة بعد أن ذهب الإله الحارس.

وأخفى إسماعيل حزنه كأنما يعاقب الضابط على سوء حراسته وغفلته وعدم درايته بما حدث يحمله ببعض ما ينوء ويرسخ على صدره وصدر زينب فقال:

- لم يعد بالنهر مياه.

اعتدل الضابط الشاب وأيقن أن ريب صدره التى حاول تكذيبها حقيقة فأمامه رجل وامرأة مشبوهان بالسكر أو بالخبل، فاتجه إلى زينب بسؤاله يستجوبها ويستشهد بها على نزق صاحبها:

- سكران أم مخبول؟!

جاء الجندى يحمل أكواب الشاى مترنحًا ببلاهة فنظر إليه الضابط بغيظ ريما لإسراعه فى إعداد الشاى واضطراره إلى استضافة شخص

سكران أو مخبول وصاحبته ولكنه لم يجد مناصًا من استكمال واجب الضيافة لشخصين يسيطر عليهما.. ليلة وتمضى ربما أفضل من بعض الليالى التى نغصت بتحركات الإرهابيين.

أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة وتردد قليلاً ثم قدم أخرى لإسماعيل الذى رفض قائلاً بزهق:

- لا أدخن.

- إذن لنتناول الشاى.

مد يده بكوب إلى زينب التى رفضت برقة ولكن إسماعيل اختطف الكوب بلهفة ورشف بسرعة محتوياته وشعر بالانتعاش وبانتهاء حالة الظمأ التى شجت حلقه. قال ببطء وعيناه تحملق فى مؤخرة تمثال الأسد الجرانيتى:

- إنك لا تصدقنى.. لم يعد بالنهر مياه.. مر أحد جنودك يذهب ويأت لك بالخبر اليقين.

تجاهل الضابط كلمات إسماعيل وضاق صدره بعد أن استفزته الكلمات الواثقة.. إنه ضابط وتحت يده مشبوه فسأله:

- لم تقل ما اسمك؟!

- إسماعيل.

- ماذا تعمل؟

- حاليًا اختصاصىّ بالأرصاد الجوية.. وضابط احتياط بالجيش سابقًا. وبهدوء أخرج بطاقته الشخصية وناولها للضابط الذى مازال يستجويه.

- لماذا لم تستخرج بطاقة عائلية؟

تهادى إلى أسماعهم صوت خشن يغنى أحد المواويل الصعيدية فنظر إسماعيل إلى زوجته.. الجميع لا يعرف بالكارثة إلا هما، وربما كانا واهمين. هب إسماعيل خارجًا من الخيمة والضابط فى أعقابه يخشى هروبه وقال وهو يتمنى أن يكون كاذبًا حتى وإن سجنوه مدى الحياة:

- انظر.. لتصدق، لم يعد بالنهر مياه!!

ونظر الضابط باستهانة ولم يلبث أن تصلبت قامته وجحظت عيناه ثم اهتز بعنف وقفز عبر السور وانحدر مع ضفة النهر المرصوفة بالأحجار وهو يحملق فى قاع النهر بذهول وذعر. انتزع مسدسه وصوبه إلى القاع الخاوى وضغط الزناد غير مصدق يريد التحقق مستهدفًا عدوًا مجهولاً معلومًا سلب شريان الوطن والدولة وكان صوت الطلقات واهنًا دفعه إلى تطويحه نحو القاع خلف الرصاصات التى اكتشف بها حجم الكارثة وخلو المجرى من كتل المياه التى كانت منذ ساعات ملء بصره وعدم اهتمامه. أيقن من عدم جدوى السلاح منذ أصبح سلاحه فى قبضة العدو الذى تسلل وأسر الماء والهواء، وسأل نفسه: لماذا لم يتعلم فى سنى الدراسة أن العدو المنوط به درء خطره لا يقف عند الحدود ولا يهددها فقط وإنما ينساب مع الماء والهواء ويهدد القلب والرئة والعقل؟ هذه هى الإستراتيجية الحقة: تحديد العدو أولاً وبكل دقة. نظر إلى إسماعيل بقليل من التطير الفطرى وبكثير من الخجل الذى يشعر به كل من لقن التميز والتفوق والسيادة وشعر فى لحظة بالضعف والخضوع والعجز أمام الظروف القاهرة. لقد تدرب على شتى الأسلحة المتفوقة التى تجابه كل عدو وسلاح ولكنه الآن أمام عدو وسلاح لا قبل له بمواجهته.. إنه لا يعرفه.

خبر إسماعيل مشاعر الضابط جيدًا الذى أصابه إحباط عجز القوة، واحترم حزنه وتركه لهواجسه التى تملأ قلبه هو الآخر.

(٤)

استيقظت زينب على رائحة مياه النهر التى تتقنها جيدًا وأصابع إسماعيل تداعب خصلة شعر تتوسد جبهتها المريضة، فزعت برؤيا الليل وكابوسه وأنها مازالت بالخيمة العسكرية وأن ما حدث لم يكن حلمًا بل

يقينًا يرتسم بقوة ووحشية على وجه إسماعيل والضابط واختفت رائحة النهرالحقيقية، وحلت محلها رائحة جافة يفرزها نسيج الخيمة الخشن ورائحة عرق إسماعيل الجذابة، وتذكرت مداعباته عن النهر السرى الذى يسبحان فيه ويجعل منهما كائنين فى حالة دائمة من الاغتسال. ابتسمت بحنان ووجد إسماعيل فى ابتسامتها كثيرًا من العزاء والأمل، ولم تلبث تلك المشاعر أن أجهضت وصوت المذيع يردد بيان رئاسة الجمهورية رقم (١) عن الكارثة المفجعة التى أدت إلى جفاف النهر وأن لجنة شكلت برئاسته لبحث أسباب حدوثها وكيفية تدارك آثارها ويطلب إلى الأمة والشعب التماسك أمام الخطر الذى يهدد الجميع.

علق الضابط بيأس:

- الخطر أم يوم القيامة؟!

توقفت حركة الحياة وصخبها تمامًا وأقفرت الشوارع فحتى الساعة التاسعة صباحًا لم يعبر كوبرى قصر النيل سوى سيارات الشرطة والجيش واختفت السيارات الخاصة والأتوبيسات التى كانت فى مثل تلك الساعة تكتظ بالركاب والحيوية.

تساءلت زينب وقد فقدت لمعيتها:

- كيف أذهب إلى الوراق؟

- كيف؟!

أجابت زينب بوجيعة على حيرة إسماعيل:

- أريد رؤية أبى وأمى.. لابد أنهما الآن يكاد يقتلهما القلق.

علق إسماعيل:

- لن ينتظر أحد عزيزًا بعد اليوم.

ساد الوجوم الذى بدده الضابط وهو يقول:

- أرجو أن تجدا وسيلة للذهاب إلى مكان آخر.

أجاب إسماعيل بسخرية:

- لم تعد توجد أماكن اخرى.

قال هذا وأمسك بكتف زينب متجهين إلى ضفة النيل فعاجله الضابط وهو يلوح بجهاز لاسلكى فى يده اليمنى:

- لدىَّ أوامر بعدم الاقتراب من النيل.

التفت إليه إسماعيل مستندًا إلى السور الحجرى فى تحد لم يقصده وكأنه يقول: أوامر.. من له القدرة على إصدارها وما عقوبة مخالفتها والجميع أسرى صحراء قاتلة.. الجميع سجناء الموت الذى حفر لعشرات الملايين قبرًا بطول النهر وعرضه وعمقه؟!!

مازال الثلاثة مطرقين فى ترقب حتى صمت صوت المقرئ المندلع من الراديو وأعقبه صوت المذيع ببيان وزارة الداخلية يناشد الشعب الخلود إلى السكينة وعدم التجمهر والبقاء فى المنازل حرصًا على النظام العام.

عاد صوت المقرئ يقتحم أسماعه برتابة وإصرار ثم صمت ليأتى المذيع ببيان آخر من وزارة الداخلية يعلن بأن تدفق المياه إلى الصنابير سيستأنف لمدة ربع ساعة تبدأ من الساعة الواحدة بعد الظهر وعلى الجميع أن يحصلوا على حاجتهم للشرب فقط خلال هذه الفترة الوجيزة.

عاد صوت المقرئ:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

أسكت الضابط الراديو بضيق.

استجاب إسماعيل لرجاء الضابط وأمسك معصم زينب وهو يقول:

- هيا إلى بيت التهامى.

تحركا بضع خطوات ثم توقفا وهما ينظران إلى الضفة الشرقية وقد احتلها فجأة آلاف من البشر ثم ارتفع صراخ الجميع وهم يشيرون إلى القاع بفزع. ونظرا إلى القاع وقد ربضت فوقه عشرات من القوارب الصغيرة ملتصقة بالوحل.

وبكت زينب مرة أخرى بحرقة فمهدها الأول كومة من الأخشاب

الملعونة من الإله الحانى العظيم.

واساها إسماعيل وقال الضابط:

- اذهبا قبل أن يشتد الزحام والخطر.

تركهما والتفت إلى جهازه يجيب على نداء قيادته:

نعم يا أفندم.. عشرات الألوف.. كيف نمنعهم من النزول إلى المجرى.. معظمهم من الصبية.

احتقن وجهه وهو ينهى تقريره وألقى بالجهاز وهو يتمتم:

- لماذا أمنعهم.. أمنعهم من لعق الطين.. ربما تفجر الماء تحت أقدامهم العارية البائسة.

اقتربت الجموع، وسوادها الأعظم من الصبية الذين تلمع عيونهم ببريق الذهول، وانفلتت جماعة منهم تشير إلى سفينة كانت منذ ساعات فندقًا عائمًا مترفًا والآن تربض فى القاع وقد هجرها روادها على عجل وتساقطت أمتعتهم على الضفة السوداء، التقطها الصبية وهم يغزون السفينة من أبوابها ونوافذها بزئير جائع مجنون. خرج بعضهم يجرى خلف رجل يحاول أن يرتدى جلبابه العربى على عجل وخلفه فتاة تهرب عارية وهى تصرخ برعب ولم تتمكن من اللحاق به حيث تلقاها عدد منهم وطرحوها أرضًا وبعد لحظات اختفى صراخها وجسدها تمامًا تحت أجساد العشرات من الكائنات الصغيرة المسعورة.

لم تحتمل زينب رؤية مشهد الاغتصاب الخرافى وسقطت مغشيًا عليها فحملها إسماعيل والضابط إلى الخيمة.. القلعة الوحيدة التى لم تسقط بعد.

أمسك الضابط جهازه يحاول الاتصال بقيادته ولكنه لم يتمكن من ذلك، ربما أصاب الجهاز التلف وربما لم تعد هناك قيادة. طوح بالجهاز كما فعل بسلاحه إلى القاع حيث سقط على رأس صبى مازال جاثمًا على جسد المرأة.

أفلح إسماعيل فى إفاقتها.

- لا وقت للإغماء.. تجلدى حتى نعود إلى بيت التهامى.

قبض على كتفها وشعر بأصابعها النحيلة ترتجف فى كفه:

- لِمَ الخوف.. الموت ليس مشكلة.. إنه حل. أليست تلك فلسفتك؟!

أجابت مقهورة:

- لا أخاف الموت.. أخاف العذاب والقسوة.

ابتسم بمرارة كأنه يتعمد تعذيبها:

- أنسيت وصيتك بأن ألقى بك فى النيل عندما تموتين.. رجوتنى ألا أدفنك فى التراب.. كنت تريدين قبرًا من مياه.

قادها من قلب الحشود التى مازالت تتدفق عبر كوبرى قصر النيل متجهًا إلى بولاق متحاشيًا الطرق الرئيسية التى تؤدى إلى النيل ملتزمًا الشوارع الضيقة والحارات ولكن لم يكن هناك موطئ لقدم، فقد خرج الجميع إلى الشوارع والحوارى وفى أعينهم سؤال قاتل.. حائر: ما السبب؟! وأجاب طالب يضع نظارة سميكة: ربما سحب الإسرائيليون الماء.

ابتسم إسماعيل وحمى رأس زينب من زجاجة تطايرت من سيارة نقل محملة بصناديق زجاجات المياه الغازية تخاطفها الناس ونقلوها فى حقائب وأجولة.

وأخيرًا بلغا حارة سارى عسكر ورأى إسماعيل باب بيت التهامى الحديدى وشعر بالراحة وقد فتح الباب على اتساعه.. لأول مرة يرى مدى اتساع بوابة بيت التهامى..

احتل الفناء مجموعة كبيرة العدد من الشباب ذوى اللحى السوداء ووقف بينهم سعد التهامى مستندًا على جذع النخلة القميئة خطيبًا ومرتلاً آياته:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

رأى إسماعيل وزوجته تكاد تسقط إعياء فلفه الصمت واتجه قائلاً بصوت يخلو من القسوة والتبرم:

ـ أرأيت يا أخى.. منذ ساعات قليلة كنت تردد حديث الإفك والضلال.. أرأيت آيات الله فى الكون وفى أنفسكم.. اصعد فتطهر أنت وزوجتك علّ الله يغفر لكما ولوالديكما.

أفسح أتباعه لهما الطريق إلى الطابق العلوى.

غطت زينب فى سبات عميق وبقى إسماعيل مفتوح العينين يحملق فى السقف الخشبى بعروقه القاتمة وصوت أخيه يرتل آياته:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(٥)

جلست زينب يخضب الحزن وجهها الوديع على الرغم من محاولات إسماعيل التسرية عنها ولم يستطع أن يكبت قوله:

ـ حزنت أنا على أبويك ولكن ما أحزننى أكثر أن أباك لم يحقق أمنية دفنه فى قبر من مياه النيل لم يبق سوى قبور الرمال والطين.

ـ رمقته زينب عاتبة:

ـ بصوتك شائبة التشفى والخطأ.

ـ أبدًا يا حبيبتى كنت أحبه وأحترمه لأنه نجح فى منح الحياة وأعطانى أجمل فتاة فى الوجود.

توردت بشرة وجهها وقالت بسخرية:

ـ وأورثنا شقة الوراق كذلك.

ـ نعم، ولو أن مشكلة السكن ستحل إلى الأبد وحلت بدلاً منها مشكلة

البقاء أحياء.

صمت الاثنان عندما بدأ صوت المذيع المتوافد من الراديو الصغير يقرأ بيان رئاسة الجمهورية رقم (٦) :

ـ يؤسفنا إعلان تقرير بعثة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية التى اهتمت بكارثة فقد النهر لمائه، والذى يوضح بجلاء أن الكارثة ليس لها من علاج قريب ولذلك وتخفيفًا من معاناة الشعب فقد تقرر ما يلى:

أولا: فتح الموانئ البحرية والجوية بالجمهورية لسفر الراغبين فى مغادرة البلاد اعتبارًا من الساعة ٢٠.

ثانيًا: تنظيمًا لحركة المغادرة فقد تقرر تحديد أيام الأسبوع لسفر فئات الشعب كما يلى:

ـ يوم السبت: الأجانب والإخوة العرب.

ـ يوم الأحد: رجال الجيش والشرطة والقضاء وأعضاء السلك السياسى وباقى العاملين بالحكومة والقطاع العام.

ـ يوم الاثنين: الوزراء السابقون والأطباء والمهندسون والمحاكمون وسائر أرباب المهن الحرة.

ـ يوم الثلاثاء: التجار وأصحاب المصانع وسائر أصحاب المهن التجارية والصناعية.

ـ يوم الأربعاء: الأدباء والفنانون وسائر رجال الفكر والقلم.

ـ يوم الخميس: رجال الدين.

ـ يوم الجمعة: سائر فئات الشعب الذين لم يرد ذكرهم أعلاه.

ثالثًا: نناشد الجميع الهدوء أمام المحنة.

وأخيرًا نتقدم باسم الشعب لجميع الدول العربية والدول الصديقة وإلى سكرتير عام الأمم المتحدة والمنظمات الدولية بالشكر والعرفان لمساعداتها الدائبة.

أنهى المذيع بيانه بصعوبة لاختناق صوته بغصة البكاء.

هب إسماعيل واقفًا:

- لا وقت للحزن أو البكاء.

جلس إلى جوار زينب مداعبًا:

- إلى أوربا أم إلى أمريكا تريد أميرة البلاد السفر؟

وجدت الابتسامة مرتعًا على شفتى زينب وهى تعلق:

- ليس لنا وطن بديل أما هم فلهم عشرات الأوطان البديلة يتكسبون الإقامة بها بما يملكون من مال وجاه.

أعجب إسماعيل لرنة التصميم والعزيمة فى صوتها. اختطف قبلة سريعة وهو يهمس فى أذنها:

- زينب الوطن والوطن زينب.

بدد صوت مذيع آخر نسمات الحب التى أوشكت على تطويقهما بالبيان رقم (٧):

«لوحظ فى الآونة الأخيرة تحركات مشبوهة لجماعات سياسية متطرفة تتخذ الدين الإسلامى الحنيف وتعاليمه السمحاء ستارًا منتهزة ظروف المحنة التى ابتلى بها الله الوطن لممارسة نشاطها الهدام.

وإننا باسم الشعب والدولة نحذر تلك الجماعات غير المسئولة ونتذرها بأننا لن نسمح لأحد باستغلال الظروف الطارئة ومحاولة اكتساب طابع الشرعية والاشتراك فى حكم البلاد.

وإننا نعلن بأن الدولة قوية متماسكة بفضل مؤسساتها المدنية والعسكرية وأن إطلاق حرية السفر لا يعنى - كما تحاول تلك الجماعات الترويج - تهجير السلطة والحكومة وإنما الإبقاء على أبناء الوطن المخلصين ذوى الإمكانيات والقدرات الخاصة لمباشرة مسئوليات الوطن والشعب من الخارج بدلاً من ترك الجميع تحت رحمة الظروف المريرة فى الداخل. وإننا نناشد أبناء الوطن المغادرين بذل أقصى جهدهم فى بلاد المنفى الاختيارى للتخفيف عن أبناء الوطن المقيمين من ويلات المعاناة، ونتمنى لهم عودة سريعة للوطن الحبيب وللجميع الهداية والتوفيق».

أطلق إسماعيل تنهيدة ارتياح وهو يستنشق كمية كبيرة من الهواء

المتدفق من نافذة شقة الوراق:

- أشم رائحة النيل والليل.. ياليل ياعين.. يا ايل يا آمون.

اعترضت زينب:

- يا حبيبى، ألم تسأم من الليل والعين ونحس بنى إسرائيل؟!

- حبيبتى ذات العقل البللورى الذى يكشف زوايا الحقائق.. أرى فيه لوثة الخرافة!

- أبدًا لكن لا أحد يشعر بحجم الكارثة مثلى فلقد ربانى النيل، ولدت وآلاف العيون فى الماء تحرسنى تداعبنى، كنت أحزن عندما أرى أبى يسحب شبكته بأسماك البلطى وهى تتلوى ثم تخمد أنفاسها وقد حاولت أكثر من مرة تقليدها وكتمت أنفاسى ولكن أبى أقنعنى أن الإنسان غير السمك. هكذا خلقه الله يعيش فى الماء وعلى البر وفى الجو وبحسه الفطرى السليم أطلق علىَّ اسم البلطيَّة وظل ينادينى به حتى بلغت العاشرة وسحبه منى بعد وفاة أخى جعفر غرقًا وكان يطلق على جعفر: قرموط. وكان يكبرنى بعامين، كره النيل وتمرد عليه وعلى مهنة الصيد وأراد أن يصبح «قهوجى» فعاقبه النيل بالموت. حقيقة كانت تكشفها لى كتب المدارس التى أجبرت على الاستمرار فيها على الرغم من ضيقى بجدران المدارس الحكومية الجافة القاتمة.

- هل تعتبرين الغرق فى النيل عقوبة تمرد؟؟

- نعم، إذا تم هذا قبل أن نحقق أهداف النيل العظيمة فى أن نكون جديرين بالانتساب إليه فسقوط الثمرة قبل أن تنضج أراها عقوبة اللفظ يوقعها الجسد العظيم بثماره العفنة، كنت أعتبر أبى وأمى مجرد خادمين فى بلاط مملكة الإله العظيم الذى لا يموت ولا يفنى.

لمحت ابتسامة هادئة تلوح على شفتى إسماعيل وفهمت بواعثها.

- نعم النيل لم يمت لأنه حى لا يموت.. وإنما اختفى ليعاقب العقوق والجحود والظلم.. فرض بغيابه عوامل الانتقاء والصلاحية.

- حبيبتى إنك تجهدين نفسك والإجهاد يحتاج طعام والطعام منعه إلهك.

لاذ إسماعيل بالراديو وأدار المؤشر إلى إذاعة لندن قائلاً: لنسمع آخر تطورات الحرب التى تخوضها البلاد.. تابعا نشرة الأخبار ثم تحليلاً تناول ما يحدث بمصر بصوت المذيع الذى ينطق العربية بلكنة إنجليزية:

- «صدر أخيرًا بعد طول تردد قرار الحكومة المصرية بفتح الموانى البحرية والجوية فى مصر وطبقًا لأقوال مراسلنا فقد تجمع آلاف من المسافرين بالقرب وحول مطارى القاهرة القديم والجديد وسدوا المنافذ والشوارع التى تؤدى إليها فور رفع الحظر على السفر.. كما يقول مراسلنا بأن البيان الذى أصدرته الحكومة يشبه قذائف أطلقتها كتيبة منسحبة تؤمن مؤخرتها حتى لا يباغتها العدو وتعلن أنها مازالت تحوز قوة نيران مؤثرة».. قطع المذيع تحليله قائلاً:

جاءنا الآن من مراسلنا بالقاهرة أن رئيس الحكومة المصرية اجتمع مع زعماء الأحزاب السياسية العلمانية لمشاورتهم حول تزايد قوى الائتلاف الدينى ونشاطه المحموم للاستيلاء على الحكم وقد التقى مراسلنا بزعيم حزب الوفد الجديد وهو الحزب الذى نشأ علمانيًا ثم دخل فى ائتلاف مع جماعة الإخوان منذ سنوات طويلة للوقوف ضد سيطرة العسكريين على الحكم والثأر منهم لتنكيلهم بزعمائه وبطبقة ملاك الأراضى التى يمثلها الحزب المذكور وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين، وسأل:

هل تعتقدون أن الائتلاف الدينى الذى يطلق على نفسه كتائب الفتح الثانى لمصر سينجح فى الاستيلاء على نظام الحكم؟!..

وقد أجاب زعيم الوفد الجديد بحزن شديد.. لم يعد يوجد نظام حكم فى مصر... أصبحت البلاد فريسة مقتولة ولا يهم أن يتحلق حولها الضباع أم الذئاب.

هذا وقد التقى مراسلنا بأحد زعماء الائتلا الذى تجوب جماعاته المسلحة الملثمة شوارع القاهرة بزيهم المميز.

- ما رأيكم فى بيان الحكومة الأخير؟ وقد أجاب:

- لا حكم إلا بما أنزل الله، وعندما يحدث هذا سيجرى النهر مرة أخرى فى جسد مصر وتصبح بحق كما وصفها الفاتح عمرو بن العاص مكونة من درة بيضاء إلى عنبرة سوداء إلى زبرجدة خضراء.

أسكت إسماعيل الراديو بضغطة من إبهامه ونظر إلى زينب وهى تحرك شفتيها كأنها تتمتم.

- تُصلِّين لإلهك الغائب.. موجدتك الصوفية عليه تحيرنى فأنت أسيوية الملامح والطباع.

نسيت أبى الأقصرى.

ابتسم إسماعيل مشغوفًا بها كأن حبيبته حقًا من نسل آلهة المصريين القدماء ابنة طيبة وآمون وحرفة صيد السمك المقدسة.

(٦)

اخترقت زينب وهى تتأبط ذراع إسماعيل شوارع الزمالك ظهر هذا اليوم من الأيام التى أطلق عليها عصر الفتح الثانى لمصر ومازالت أبنيتها أنيقة وأشجار حدائقها مستمرة فى إفراز ظلال ورائحة زكية، ولم تنل منها عمليات النهب التى استهدفتها فى الأسابيع الماضية مثلها مثل باقى أحياء القاهرة وهجرة سكانها القادرين إلى أوطانهم الجديدة وتركها لصرامة العصر وهواية المحرومين الجديدة فى التنقل بين أرجائها الخاوية. وفى نهاية شارع أبو الفدا وقفت زينب تنظر مبهورة إلى فيلا سماوية اللون كأنها قطعة من الفضاء أقامها النهر الإله بجواره على الشاطئ.

سألها إسماعيل بثقة: أتريدين السكن فيها؟! تتحول الأحلام أحيانًا إلى حقائق. دفع إسماعيل البوابة النحاسية اللامعة وسار فى الحديقة وفى أعقابه زينب متجهين إلى باب الفيلا الإنجليزية الطراز، دفعه برفق إلى الداخل، وقفا ينظران مشدوهين إلى الديكور والأثاث المبثوث فى

أرجاء المكان الفسيح.

وقد غُطِّى معظم أرضيته المرصوفة بالرخام الأبيض بقطع من السجاد الأحمر حيث تناثرت عدة حقائب ملابس ثمينة المظهر ويجوارها قفص به زوجان من الببغاء الزنجبارى، مقلوب والطائران يقفزان داخله بهلع.

همس إسماعيل:

- أصحابها كانوا فى عجلة من أمرهم ودهمهم طارئ.

علقت زينب:

- الخوف أعنف الطوارئ.

جلسا فى الصالة المترامية الأطراف يحملقان ويستمتعان ولا يستطيع عقلاهما بما أوتيا من خيال استيعاب الترف الذى يبرز فور كل نظرة وخطوة.

وأخيرًا قال إسماعيل:

- إذا كانت هذه الفيلا فى مصر وكنا نراها كل يوم فأين كنا نعيش وأين كان هؤلاء الذين يرفلون فى نعيم خرافى يعيشون؟؟

- كنا نسبح فى أحضان الإله الذى غضب واحتجب.

ضحك إسماعيل بسرور:

- كأننا غزاة نجوس فى أسلاب المقهورين وأمتعة النعيم التى خلفوها.

رفع عقيرته:

- يا ليل.. يا عين.. يا ايل.. يا آمون.

سرى الانتشاء إلى زينب وهى تتابع فحص إسماعيل لصور الاسرة صاحبة الفيلا المعلقة على الجدران وقوله:

- سلطان باشا.. على باشا.. مدحت باشا.. وجدى باشا.. الصاغ نادر.. كيف كانوا يعيشون!

لنر ماذا كان يأكل هؤلاء ثم نكتشف كيف كانوا يعيشون.

لم يجدا صعوبة فى العثور على المطبخ ولم يفهما كثيرًا من الأجهزة

المتراصة بداخله. فتحا الثلاجة الضخمة كسيارة نقل ومازالت البرودة تغمر محتوياتها على الرغم من انقطاع التيار الكهربائى منذ فجر اليوم. تناولا غداء لم يتذوقا له مثيلاً من قبل طوال تاريخهما المعلوم والمجهول.

هكذا عبر إسماعيل وقالت زينب:

- هل نحن لصوص أم غزاة كما تقول؟!

- لا لسنا لصوصًا أو غزاة بل نعيش فى الحقيقة شعار جدك العظيم إخناتون؟

- وما الحقيقة؟

- أننا عدنا إلى وطننا.

علقت زينب بمرارة:

- بعد أن غاب رب الوطن

طوقها إسماعيل بحنان:

- زينب أعشقك بلا حدود مصنوعة أو طبيعية.

تملكته رغبة جنسية حارة فهمس:

- إلى مخادع الملوك السابقين.

وداخل أول حجرة نوم فى الطابق الأعلى، لم يدققا فى الرياش الكسروى ولا الفراش الإمبراطورى الذى طواهما فى عبابه الزئبقى. استند إلى «مخدة» من المخمل المحشو بالإسفنج على هيئة صدر المرأة متأملاً جسد زينب العارى، لم ير جسدها من قبل بهذه الفتنة والاكتمال. شعر بالزيف لأنه وضع زينب موضع مقارنة كأنها تحتاج الاستكمال وهى المعنى الكامل الوحيد فى حياته منذ تاريخه وتاريخ أسرته المكتوب. إنها الأرض الجديدة التى لم يكتشفها مغامر.. البكر رغم عريها الظاهر.. الوقار وإن كانت بين ساقيه.. الطهارة وإن دنسها برجولته.

سارعت زينب إلى ارتداء باقى ملابسها وذعر إسماعيل لتحرك الستارة الضخمة التى تغطى الحائط الغربى للحجرة واستنتج أن رجال عصر الفتح الثانى أو رجال التبرئة أعدوا له كمينًا وتوجس الشر.. وأسفر

تحرك الستارة المرعب عن سقوط فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها خارجها. هرعا إليها وحملها إسماعيل إلى الفراش وأخذت زينب فى تطبيبها حتى أفاقت ولم تزل عيناها وجوارحها تعبران عن إحساس قاهر بالخوف والرعب. أحضر لها إسماعيل كوب ماء واستبدلت لها زينب ملابسها التى بالت عليها كتعبير لا إرادى عن حجم المحنة التى مرت بها الفتاة الشقراء.

سألتها زينب بحنان عن اسمها.

- سيرين نادر وجدى.

بهذا أجابت الفتاة متلعثمة فى نطقها فقالت زينب تهدئ من فزعها:

- أرجو ألا تسيئى فهم وجودنا فى بيتكم الجميل، أنا مدرسة بمدرسة الشهداء الثانوية وهذا إسماعيل زوجى.

ساندها إسماعيل:

- اعتبرينا ضيوفًا.. وفى رحلة مدرسية لقصركم التاريخى العظيم.

أدخل عطف زينب وزوجها وحنانهم الطمأنينة إلى قلب الفتاة الصغيرة فسالت دموعها بغزارة وقالت بفجيعة:

- أخذوا أبى وأمى.

- توجد أمور كثيرة لا طائل من مناقشتها وأمور أكثر من الصعب التفكير فيها وليس هناك خيار أمام الأحياء؛ إما الموت وإما الحياة وكلاهما فادح الثمن ولكن أيًا كان ثمن الحياة فلابد من دفعه.

فهمت الفتاة الإصرار والإرادة فى عبارات زينب وإن لم تفهم مقصدها جيدًا فجففت دموعها وهدأت.

حكت لهما كيف تم إخطار اسرتها بموعد سفرهم جميعًا إلى لندن المنفى الاختيارى الذى اختارته الأم الإنجليزية الأصل، ويوم السفر ولحظة مغادرة البيت اقتحمه رجال التبرئة وحملوا الأم والأب ونجت هى لاختبائها، ولكنها رأتهم من نافذة الدور العلوى وهم يمزقون ملابس أبيها ويرغمونه على ارتداء جلباب ويحملون أمها فى صندوق يظهر منه رأسها

فقط وقد أزالوا شعرها بالموسى.

علقت زينب برثاء:

- حملوها فى تابوت التبرئة.

لم تتمكن الفتاة من الاستفسار عن تابوت التبرئة بعد سماع ضجة أصوات مختلطة. نظر إسماعيل من النافذة وقال بذعر:

- رجال التبرئة يحتلون الحديقة.

فتح باب الحجرة واقتحمه خمسة رجال يضعون شارة ولاية الزمالك.. مفاجأة ارتعدت لها فرائصه. وسأله قائدهم والشرر يتطاير من حركاته وسكنات جوارحه عن صلته بزينب والفتاة، فأخبره بأن زينب زوجته وأنهما اعتقدا أن البيت مهجور، والفتاة صاحبة البيت. قادهم إلى الطابق الأسفل وطلب منه ومن زوجته إطلاعه على بطاقتى التبرئة اللتين يحملانهما. طابق الأسماء فى الوثيقتين ويبدو أن نظرات زينب لم ترق له لما جبلت عليه من ثقة هائلة بالنفس فحجز وثيقتها وأعطاها لأحد الرجال وطلب منه فحصها على مهل وأعطى إسماعيل وثيقته وطلب منه الانصراف ولكن إسماعيل رفض وأصر على عدم الذهاب إلا بصحبة زوجته. فابتسم الرجل بغموض وغمغم:

- ملوث بفسق الجاهلية.

حاول مرة أخرى بالترغيب دفع إسماعيل إلى الذهاب بمفرده ولكنه فشل فقال مهددًا:

- لو ثبت تزوير بطاقة هذه المرأة سأقيم عليكما حد الزنى.

سأل الفتاة بهدوء:

- أنت ابنة المرأة الإنجليزية والرجل المارق اللذين قبضنا عليهما صباح اليوم.

أجابت الفتاة مسلوبة الإرادة:

- نعم.

وعندما سألها عن اسمها واجابته صاح:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نال جزاءه أبوك المارق... طبعًا لم يستخرج لك وثيقة تبرئة.

تدخل إسماعيل:

- ليس لأهل المنفى الاختيارى استخراج وثائق تبرئة.

نهره وأمره أن يصمت وأصدر أمرًا لأحد رجاله:

- لم تعد هذه الفتاة من أهل المنفى الاختيارى بعد موت أبويها.. أعدوا لها وثيقة تبرئة.. أصبحت منذ الآن ابنة عصر التبرئة واسمها «عاتكة». كان لكلماته القليلة دوى قنبلة أطاحت بصواب الفتاة لتأكيد قتل أبويها. سقطت منكفئة على وجهها على البساط الثمين وتشبثت بأهدابه وهى تزوم كأن تلك الأهداب أشواك يصل لسعها حتى القلب.

انتزعها الرجل من ملاذها وقلبها على ظهرها، ارتعشت لحيته وتعذبت نظراته فقد ظهر صدر الفتاة عاريًا بعد أن مزقت «بلوزتها» وهى تسقط، طلب منها أن تستر عريها ونظراته الجائعة تتوسل منها مزيدًا من العرى. التفت إلى إسماعيل محمومًا متمنيًا ذهابه وزوجته بأى ثمن. سأل بعصبية عن رجله الذى ذهب بوثيقة زينب، وبين الفينة والأخرى ينظر إلى الفتاة المنكمشة يطمئن إلى وجودها الثمين. وبغريزة الأنثى التى لا تفنى ولا تفل أيقنت الفتاة أنها اهتدت إلى المنفذ الذى تخترق به عقل القائد وقلبه وعزيزته وتهدد عصره بأكمله.

بدأت تزحزح الغطاء عن صدرها وتسقطه ثم تتستر به والرجل يتابع مبهورًا بإغراء الأنثى ولم يستطع كبت رغبته المزيد من اللحظات، ثم قال بصوت طاغ:

- يا ابنة المشركة والمرتد أنت سبيَّتى وأسيرتى حتى يأذن الله فى أمرك، بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

قال هذا وانبرى يقرأ بصوت مرتفع بعض آيات من سورة الأنفال.

- إنها زوجته والله أعلم.

ابتسم عن أسنان قوية: أعجبكما البيت؟ إنه لكما، فىء الله كثير

ببركة أمير الأمراء.

طلب من رجاله حمل بعض الأبسطة والرياش الثمينة ودلته الفتاة إلى الحلى الذهبية التى كانت تحتفظ بها أمها.

غادر رجاله الفيلا الإنجليزية بالفتاة بعد أن طلب منها وضع النقاب، ثم تراجع عن قراره كأنه لا يطيق عدم رؤية وجهها سافرًا:

- النقاب ليس للسبايا والإماء.

توجه بحديثه إلى زينب بعد ما رأى فى نظراتها من استهجان وتمرد:

- لا تنسوا أن تسجلوا إقامتكم الجديدة.

(٧)

هجر إسماعيل وزينب فيلا الزمالك واستقرًا مرة أخرى فى شقة الوراق.

جلس إسماعيل يتأمل مدخنة مصنع طوب مهجور ثم طلب من زينب إدارة مفتاح التليفزيون لمشاهدة الاحتفال بالعيد الأول لعصر التبرئة.

دارت آلات التصوير تنقل صورة نصفية لأمير أمراء الأئمة فلا يرى منه سوى نصفه الأسفل ويديه وهى تعبث بمسبحة. وكان يقف على المنبر وأمامه جلس الأمراء الأئمة لولايات مصر وأعضاء مجلس البيعة ومجلس تأليف القلوب ورجال الدعوة من الصف الأول والمجاهدين ورؤساء الألوف والمئات.

حاول إسماعيل بمساعدة زينب التعرف على صورة أخيه سعد التهامى من ظهره ولكنهما فشلاً وارتفع صوت أمير الأمراء يفتتح الاحتفال السنوى لمرور عام على الفتح الثانى لمصر وعصر التبرئة المنتصر بقوله:

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾.

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ﴾.

يا رجال الله والتبرئة فلنبايع الله ورسوله ألا نشرك بالله شيئًا وألا نسرق أو نزنى وألا نأتى الفاحشة وألا نعصيه وألا نؤوّل كلمات الله وألا نشترى الخبيث بالطيب وألا نتيح للطاغوت مثوى بيننا، والله على ما نقول شهيد.

وقف الرجال وهم يهتفون: دماؤنا.. أموالنا.. أولادنا لله وعصر التبرئة.

استطرد أمير الأمراء:

فلنبايع الله ورسوله أن نعيد للإسلام حميته ونقاءه وننهى الخلاف الذى شجر بين المسلمين منذ مئات السنين وحولهم إلى شيع وأحزاب وفرق بلغت ثلاثًا وسبعين فرقة وأن يصبح الإسلام فرقة واحدة هى الفرقة الناجية لا ضلالات ولا تأويل.. لا شيعة.. لا معتزلة.. لا مرجئة.. لا خوارج.. بل كتاب الله وسنة رسوله.

عندما بلغ هذا الشأن هبت مجموعات من الحاضرين فاستطرد بصوت زاعق:

- أنا لا أقول هذا متغاضيًا عن حكم التاريخ وظروفه بل أقول قولى هذا بالتى هى أحسن كما قال الله فى محكم تنزيله: ﴿فإذ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾.

فلنطرح للرأى أسس الخلاف الذى شجر بين فرق الإسلام لتضييق الشقة حتى ينحصر هذا الخلاف وتصبح فرق الإسلام فرقة واحدة ناجية من عذاب الله مبشرة بالجنة، لننهل جميعًا من نبع واحد ولا نخوض فى مجارى الأهواء.

نهض الحاضرون مرة أخرى هاتفين:

دماؤنا.. أموالنا.. أولادنا لله وعصر التبرئة.

جلسوا وظلت الجماعة القريبة من أمير الأمراء وهتف أحدهم:

- عاشت الفرقة المبشرة بالجنة.

انتهى المؤتمر بإعلان المباحث التى سيجتمع إليها كل الأمراء الأئمة

لولايات مصر على اختلاف نزعاتهم:

- العدل والتوحيد.
- الوعد والوعيد.
- القدر والاستطاعة.
- الخير والشر.
- الهداية والضلال.
- الإرادة والمشيئة.
- الرؤية والإدراك.
- صفات الله.
- التعديل والتحوير.
- الحلال والحرام.
- المنزلة بين المنزلتين.

تأفف إسماعيل وخاطب زينب قائلاً:

- إنهم يريدون تجميع أنهار العالم فى مجرى وحيد وتوجيه رياح الأرض الموسمية والمدارية والآسيوية فى اتجاه واحد.

تابعا انتهاء الاحتفال الأول لعصر التبرئة، وبدأ المؤتمر الصحفى الذى حضره أمير الأمراء وأجاب على أسئلة الصحفيين العرب والأجانب الذين توالت أسئلتهم:

س: كيف سيتم لعصر التبرئة علاج الأوضاع الاقتصادية المنهارة التى نتجت عن إغلاق مئات المصانع وانهيار صناعة السياحة بعد إغلاق الأماكن الأثرية؟؟

جـ: ﴿ ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ . لم يتمكن المراسل الأمريكى من فهم الإجابة التى نقلت له مترجمة فكرر سؤاله بصيغة أخرى وأجاب أمير الأمراء بترديد نفس الآية.

علق إسماعيل:

ـ هذا الأمريكى يتحدث كأنه «ماركوبولو» فى حضرة خان المغول الأعظم.. خليط من الاحتقار والاستعلاء والرغبة فى تأدية واجبه كاملاً والعودة إلى قومه بصورة كاملة عن العالم المجهول الغائب فى حفريات التاريخ.

س: ما هى حقيقة ما أثير حول اعتزام مجلس البيعة إصدار قرار بتدمير الآثار الفرعونية باعتبارها تجسيدًا للوثنية والشرك؟!

جـ: ليس الأمر بهذه السهولة ولكن عصر التبرئة لا يعترف بغير مزار واحد حدده الله وجعل أفئدة من الناس تهوى إليه.

س: لماذا لا يتم بيع هذه الآثار بمزاد علنى؟

جـ: نحن لا نتجر فى الأوثان.

س: صرحتم منذ أسابيع قليلة أنكم تشجعون الاستثمارات الغربية فى التنقيب عن الثروات المعدنية والمياه الجوفية وتحويل الاقتصاد والمجتمع الجديد من اقتصاد نهرى إلى اقتصاد صحراوى مماثل لاقتصاد شبه الجزيرة العربية، علمًا بأن هذه الاستثمارات لكى تجتذب يجب أو يوفر لها قدر من حرية الحركة فهل عصر التبرئة مهيأ لمثل هذا القدر من الحرية.

يبدو أن أمير الأمراء قد ابتسم حيث انعكس هذا على وجوه الصحفيين الجالسين أمامه ثم أجاب:

ـ اقتصاد النهر أو البر أو التعامل مع الغرب أو الشرق ليس قضية دينية فلقد تعامل مسلمو الدعوة الأولى وملسمو الخلافة مع جميع الشعوب، ولكن هذا لم يلههم عن إعلاء كلمة الدين ولم يبيعوا آخرتهم بثمن قليل.

س: تعلمون أن النظام المصرفى الحالى هو نتاج للاقتصاد الرأسمالى والجانب الأعظم من أموال العالم تتنقل من خلاله سواء كتجارة دولية أو صناعة تحتاج لأموال تسهم فى عملية الإنتاج والابتكار، وهذا النظام المصرفى يعتمد على سعر الفائدة كحجر زاوية.

جـ: نحن لا ندين للأحجار بالولاء.

لم يجب أمير الأمراء على السؤال إجابة منطقية فسأله صحفى كويتى:

حرم الله الربا «الفائدة» لأنه كان يعوق النشاط التجارى ويؤدى إلى انكماشه وذبوله، ولكن الفائدة وسيلة من وسائل تنظيم تدفق أموال التجارة وتنشيطها فضلاً عن ظهورعامل جديد لم يكن موجودًا تمويل الصناعة، وعلى عصر التبرئة أن يجد تفسيرًا عقليًا للربا «الفائدة» بدلاً من التفسير النقلى.

جـ: لا تأويل لكلمات الله: وبشر الذين يحرفون الكلم عن موضعه بالخسران والعذاب الأليم.

س: هل سيتم النظر فى الاتفاقيات التى أبرمت قبل عصر التبرئة وخاصة اتفاقيات كامب ديفيد مع الإسرائيليين؟

جـ: ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾.

س: يفهم من هذا أنه لن تتم محاربة إسرائيل إلا بعدوانها على مصر، فهل لدى عصر التبرئة القدرة على التصدى لحرب إسرائيل إن اعتدت؟

جـ: ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾.

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾.

س: أشيع أن أمريكا تقدم لعصر التبرئة مساعدات ضخمة للتغلب على أزماته الاقتصادية فهل لا تعتبر هذه المساعدات وسيلة ضغط لتوجيهه إلى المسار الذى يرفضه العصر؟

جـ: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾.

س: ما هى شروط عودة أهل المنفى الاختيارى؟

جـ: ما تطلقون عليهم «أهل المنفى الاختيارى» ونسميهم نحن «لصوص العصر وأعداءه» منافقون هم وأولادهم مخلدون فى ا لنار وبئس المهاد، ولكن إذا شاء أحد منهم العودة فيتوجب عليه الامتحان.

س: ما هو الامتحان؟

جـ: سيضع شروطه مجلس البيعة ومجلس تأليف القلوب.

س: من الظواهر التى أتاحت لأعداء عصر التبرئة الفرص للنيل منه عودة نظام الرق وانتشار منصات النخاسة فى أماكن عديدة، ما رأيكم؟

جـ: توجد بعض الظواهر غير المحمودة ولكننا نحاول أن نطبق قوله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾.

س: ذكرتم فى كلمتكم منذ قليل أمرين على جانب كبير من الأهمية: الأمر الأول أنه توجد تيارات أو جماعات فى عصر التبرئة تستند فى أفكارها إلى فكر شيعى، خوارج، معتزلة، مرجئة، وهى الفرق الرئيسية فى التاريخ الإسلامى.

والأمر الثانى: أنكم ستنقون الفكر الإسلامى من الأسباب التى أدت إلى هذا. والآن، ألا تعتقدون أن هذه المهمة صعبة بل مستحيلة؟!

جـ: فى حياة النبى ﷺ لم يظهر أثر لهذا الخلاف وإن ظهر فلم تكن هناك فرصة للذين فى قلوبهم مرض أن يستثمروه فى إشاعة الفرقة بين المسلمين، وحتى فى زمن الخلفاء الراشدين ورغم ظروف الردة حتى مصرع سيدنا عثمان الذى قتل فى رأيى لأنه تولى جمع القرآن الكريم وحمايته من التحريف، بمعنى آخر لقد دبت الفرقة بعد أن دخل الإسلام أقطار الديانات القديمة التى لم يفهم أهلوها القرآن الكريم.. واستغل هذا الجهل؛ الموالى والمنافقون فى بعثرة جهود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف فى تأويل تفسيره وتحريف الكلم عن مواضعه. وكما قلت فلا يجب أن توجد إلا فرقة واحدة ناجية تؤمن بقول الله: ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ﴾. فلا تشيع ولا اعتزال أو خروج أو إرجاء. فالتشيع لله ورسوله، والاعتزال لن يكون إلا عن ما يغضب الله ورسوله،

والخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ورسوله، وإرجاء الخلاف حتى يذبل وتذروه رياح الحق والعدل والهداية.

س: هل يفهم من هذا أن الشعوبية السياسية والاقتصادية هى التى أدت إلى ظهور الفرق الإسلامية التى فسرت القرآن الكريم تفسيرات تؤيد أهواءها.

جـ: القرآن الكريم لا يجب أن تفسره الأهواء. وكما قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

س: ألا ترون أن اعتماد بعض الجماعات الدينية المؤثرة قبل عصر التبرئة على تفسير بعض المفكرين الباكستانيين لآيات القرآن كأبى الأعلى المودودى لا يؤيد تمامًا اتجاهكم فى القضاء على الشعوبية.

جـ: لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى.

س: ما رأيك فى الاعتقاد بالمهدى المنتظر؟

جـ: أرجو ألا نستدرج إلى أمور لا طائل من ورائها، ولكن إذا أردتم إجابة تاريخية محضة فأستطيع القول إن هذه الفكرة تسربت إلى فرق الشيعة من مصادر صليبية استعارتها من مصادر فرعونية، وكلمة الإسلام الحقة فى قوله تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾ وسيقوم مجلس «تأليف القلوب» من الأمراء الأئمة بدراسة هذا الموضوع ضمن المباحث التى سيتولى بحثها.

انتهت الجلسة الصحفية كما أعلن ذلك المذيع ذو اللحية المغولية الخفيفة وبدأ القارئ تلاوته إيذانًا بانتهاء الإرسال اليومى للتلفزيون وكانت الساعة تقترب من السادسة والربع مساء وأذان العشاء.

نبه إسماعيل زينب إلى قرب ساعة الإمداد اليومى من المياه التى تبدأ فى الانهمار فى الصنابير فور بدء الأذان.

أجابه صوتها ضعيفًا متهافتًا، هرع إليها.. إن زينب الحبيبة تعانى مخاض الولاة.

حملها إلى مستشفى «عبادة بن الصامت» للولادة بالمنيرة حيث وضعت غلامًا ذكيًا كما أخبرته الممرضة الشابة التى تحايلت متضافرة مع الطبيعة على الاستهانة بكل لوائح المستشفى ومحاذير عصر التبرئة وكانت ابتسامتها وصوتها ونظراتها متبرجة بدون أحمر شفاه وظلال وكحل مآقى.

جلس إسماعيل بعد أن هدأت روعه الممرضة الشابة وأحضر له عامل البوفيه كوب شاى بدون سكر بعد أن نفحه نصف براءة العملة التى ضربت فى عصر التبرئة. احتسى الشاى ومع هذا شعر بإرهاق يكبل عضلاته، حاول البقاء مستيقظًا وتشاغل بقراءة آيات من سورة مريم مخطوطة على الحائط. غط فى نوم عميق واستيقظ والفجر يؤذن على صوت الأخ العامل وهو يقول له:

- المشرف الدينى والإدارى يريدك.

- أريد رؤية زوجتى وابنى أولاً.

نصحه الأخ العامل بالحذر عند مخاطبة المشرف الدينى والإدارى بأنه شديد المراس، بيده مستقبل المولود بل الأسرة كلها فهو الذى يختار له الاسم والحصص التموينية من غذاء وكساء وإن تقريره الذى سيعده عنه سيكون شهادة ميلاد وحياة وموت أيضًا للمولود.

سار إسماعيل خلف الأخ العامل حتى بلغ سدة المشرف الدينى والإدارى، لمحهم بطرف عينه اليمنى ولكنه استمر فى التشاغل بقراءة جريدة «الحجر الأسود». أقرأه إسماعيل السلام فطوى الجريدة بعناية ووضعها جانبًا وقال بصوت هادئ لا يخلو من صلافة:

- أنت والد عبدالله الذى فضله الله وجاء لدار الفناء يوم عيد عصر التبرئة الأول؟ ما اسمك؟

- إسماعيل.

- اسمك المنسّب؟

- إسماعيل السيد خليل.

ـ ما اسم زوجتك؟
ـ زينب محمد محمود الأقصرى.
ـ أين عقد النكاح؟
ناوله إسماعيل وثيقة التبرئة التى تخصه.
دقق النظر فى بياناتها ثم سأله عن وثيقة زوجته.
ـ فى البيت.
ـ سأحتفظ بوثيقتك حتى تعود بوثيقة زوجتك.
ـ أنت تعرف أنه لا يستطيع أحدالتحرك بدون وثيقة وإحضار الوثيقة الأخرى سيضطرنى إلى عبور ولايتين وأنت تعرف تدقيق رجال التبرئة فى الذهاب والعودة.
أجاب الرجل ساخرًا:
ـ واضح.
تناول كراسة دوَّن عليها ملاحظات عديدة ثم التفت إلى إسماعيل.
ـ عندى خلوة الآن وحتى ضلوع الشمس ولكن لا بأس من تأخيرها قليلاً حتى تتمم إجراءات تسجيل ابنك المحظوظ.. حذيفة.
تساءل إسماعيل:
ـ من حذيفة؟
ـ ابنك.
ـ من أسماه؟
ـ الله.. الله ألهمنى بالاسم التقى حذيفة.
ـ ولكن زوجتى اختارت له اسمه قبل أن يولد.
ـ إماء الله لا يخترن أسماء عبيد الله.
قال هذا واتسعت حدقتا عينيه العميقتين المليئتين بالوعيد.
خلد إسماعيل للصمت وانتبه على صوت الآخر:
ـ لعائلتك اسم؟
ـ التهامى.

اهتزت لحية المشرف الدينى والإدارى وهو يتساءل باهتمام:
- الأمير الإمام سعد التهامى عضو مجلس البيعة والأمير الإمام لولاية بولاق قريبك؟
- شقيقى.
انفرجت خطوط التجهم التى كانت تزيدها لحيته السوداء قبحًا وهو يرحب به وطلب له فنجان قهوة وبدأ يبرر تشدده وكيف أن عصر الجاهلية والطاغوت مازال يلقى بوقوده الدنس فى موقد مناهضة عصر التبرئة.
أشعل إسماعيل سيجارة «كليوباترا» وناول المشرف الدينى والإدارى واحدة أشعلها وبدأ يلتهم دخانها بشراهة ثم قال:
- أرجو أن تنقل للأمير الإمام سعد التهامى أنه يجب تغيير اسم هذه السجائر.
تساءل إسماعيل باهتمام:
- وماذا تقترح لتسميتها؟
قطب الرجل وقال:
- سجائر التوبة.
علق إسماعيل:
- سمعت أن المصنع فى سبيله إلى التوقف.
تخلى المشرف الدينى والإدارى تمامًا عن سمته المتجهم.
- هذا أفضل.. تدخين الجوزة أكثر أمانًا.
قطع حديث السمر الذى بدأ يتألق بينهما المرأة الممرضة التى تبرجت بنظراتها وصوتها فكان رغم الفزع مثيرًا مغويًا.
- أمة الله بحجرة ١٧ هربت.
- ومولودتها؟
- تركتها.
اربدت سحنته وقال:
- «حسبنا الله ونعم الوكيل» تطيرت منذ رأيت هذه الفاجرة، لمحت

الشيطان فى أعطافها.. كيف غافلتكم؟

أجابت المرأة بصوت تكذبه شفتاها المختلجتان بالرغبة والمتعة:

- انشغلنا بصلاة الفجر.

زفر بقوة وكذبها بنظرته كأنه يقول لها ضعى الضمة على حرف الفاء، وردد ملتاعًا:

- عشرة نساء يلدن سِفاحًا فى شهر واحد ويهربن من المستشفى.

لم يعلق إسماعيل وابتسم متشفيًا فرغم التشدد والتشديد وإجراءات المشرف الدينى والإدارى الصارمة فقد هربت من قلعته ومن تهمة الزنا عشر نساء حملن سفاحًا.

لم يهنأ بتشفيه فقد اقتحم الحجرة الأخ العامل يردد ظافرًا:

- عثرنا على الزانية مختبئة أسفل المنبر الخشبى للمسجد.

سيقت المرأة الهاربة وكانت رغم الإرهاق والخوف شديدة الجاذبية والملاحة تدفعها حارسة ضربت سنوات القسوة والدمامة على ملامحها نقابًا من النفور. ولم تنتظر حتى إشارة البدء فى التنكيل، وضربت المرأة الصغيرة بقبضتها فى صدرها فركعت على الأرض وهى تتأوه.

وبغِلٍّ وانتقام بدأت الحارسة تركل المرأة فى بطنها وفخذيها كأنها تنتزع من ثوبها رجلاً يمتعها. ولم تحتمل المرأة وحاولت تفادى الضربات المنهالة على جسدها.

بهت إسماعيل للقسوة والعرى الذى لم يحرك مشاعر الثلاثة الدينية. هب من كرسيه يحاول مساعدة المرأة، ولكن المشرف الدينى والإدارى حذره بقوله:

- ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾.

- حالتها خطيرة إنها تنزف.

عبّر عن لا مبالاته بقوله:

- ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا﴾

طلب من الحارسة والعامل سحبها إلى عنبر «الحد» وبدأ يكتب

مـذكـرة للجنة «النهى عن المنكر» ثم وضع القلم جـانبًـا ونادى على الحارسة، وجاءت تركض وسألها:

- هل اعترفت الزانية بشريكها؟

أجابت بصوت له صفير:

- لم تعترف.

- أحضريها لننتزعه منها.

- اترك هذا للجنة «النهى عن المنكر».

- لا يجب إضاعة وقت اللجنة فأعمالها كثيرة وأعباؤها ثقيلة وقد ملأ العصاة الأرض الجافة.

جاءوا مرة أخرى بالمرأة محمولة هذه المرة وألقوا بها أمامه، فسألها بهدوء:

- نصيحتى عدم التستر على شريكك لا داعى لتحمل المزيد من الذنوب.

علق إسماعيل:

- إنها تحتضر.

تجاهل تعليقه وصرخ فى وجهها:

- ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ أجيبى.

وبصوت غائم باليأس والتعب أجابت:

- أحد رجال مولاى الأمير الإمام صفوت غانم.

ارتج الرجل والحارسة والعامل وأدانوها بالإجماع قائلين:

- أغويتيه يا زانية؟

وبعد أن خفت حدة المفاجأة سألها المشرف الدينى والإدارى:

- من المجاهدين أم من رجال الدعوة.

- من المجاهدين.. رئيس مائة مرتضى الفيومى.

فتح فمه مذهولاً وبدأ يكيل لها السباب.

- يا سليلة زمن الجاهلية أتفترين على المجاهد مرتضى الفيومى.

تدخل إسماعيل مشفقًا:

- هل لديك بيّنة؟

نظرت إليه المرأة الصغيرة وأخذت نفسًا عميقًا ارتد من حلقها مع نظرتها الكسيرة كأنها تقول له: لا تتدخل فيما لا يعنيك. وعاجله المشرف الدينى والإدارى بقوله:

- ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

دهم إسماعيل النوم واستيقظ وشمس الضحى الباهتة تغمر تلك البقعة من ولاية السيدة زينب. خرج من المستشفى يحمل وليده هيثم أو حذيفة وليد عصر التبرئة، وزينب تستند إلى كتفه، ورأى هرجًا وعلامات شر تلوح على أوجه الجميع لاقتراب ساعة تنفيذ حد الزنى فى المرأة، تسرب إلى مشاعره الموروثة روح ابتهاج خفى وقال لزينب وهى تتوكأ عليه:

- ما رأيك لو ألقينا نظرة على الميدان.

استرد رشده أمام نظرات عينى زينب الطاهرة من الوحشية والهمجية وهى تقول له بصوت قوى رغم عنف الولادة:

- أصابك المرض اللعين. الشغف برؤية مصرع الآخرين اليومى.

همس إسماعيل:

- نعم مات الإله ويدفع الآخرين للموت والفناء.

ركبا الأتوبيس فى طريقهما إلى الوراق، تحرك ببطء بركابه قليلى العدد وقفز معظمهم منه عند الاقتراب من الميدان لمشاهدة حفل قتل امرأة المستشفى.

(٨)

لم تشغل الأمطار الغزيرة التى ظلت تهطل منذ منتصف الليل الجماهير التى تدفقت منذ الفجر غير آبهة بالخسارة التى تفوتها فى تجميع المياه المنهمرة من السحب القاتمة الخصبة، وانسالت الجموع مع تيار الماء المتدفق من شوارع وطرقات الأحياء القريبة من ميدان «عبدالله

ابن الزبير» العباسية سابقًا وارتفعت دقات الطبول والمزامير تتصاعد من أحياء الحسينية وباب الشعرية والوايلى تختلط مع الأمطار وقد غطت الأقدام التى أصبحت الحوارى والشوارع بيوتها ومسكنها تبقيها الأشواق إلى ما يأتى به المجهول الذى أخرجها من الجحور وأفرغ لها القصور من سكانها الأقوياء، ومع هذا لم يسكنها المقهوون لأنهم لم يتعودوا السكن فى أماكن لا تتلاطم أجسادهم فى جوفها، يفزعهم الفراغ الوثير داخلها، أورثهم التلاحم مع قهر العجز الفردى والجماعى الخوف من الانفراط وأمدهم عصر التبرئة بالحلم واليقظة والترقب والانتظار فى العراء لما تأتى به كل لحظة وأصابهم ما يصيب الشعوب إبان الأحداث الجسيمة من مرض عشق البقاء فى العراء أملاً فى قيادة التغيير إلى حيث تريد وتهوى، تخشى بالغريزة البقاء داخل الجدران حتى لا تؤخذ على غرة ويسرق ما تأتى به أحلامهم. فشل رجال التبرئة بسراويلاتهم الهندية وعمائمهم السوداء فى تنظيم ركض الجماهير التى تعلو وجوههم سيماء وبهجة الانتصار رغمًا عن النحول والهزال والجوع الذى أفلحوا فى التغلب عليه بالتمرس والتعود، ولكن لم تفلح أسمالهم البالية فى ستر هزالهم وحمايتهم من ضعضعة حواسهم العارية بفعل البرودة التى تهاجمهم بلا شفقة، واختلطت بالحشود أعداد كبيرة من الأطفال الذين تخلصوا من ضعف الكبار أمام عناصر الطبيعة فكانوا أكثر حيوية وتقافزوا عرايا وتدحرجوا مع تيار المياه المحملة بالأقذار ونهلوا منها بشغف عوضهم قليلاً عن تقتير الآباء فى إعطائهم نصيبهم من المياه الذى أصبح أكثر أهمية من أبنائهم وبعبارة أخرى أكثر من حياتهم ولم يأبه أحد لصوت امرأة عجوز استندت إلى مسجد الظاهر بيبرس وهى تقول وقلبها دهمته حيوية طفلة فى السادسة ترفع شعار ولاية الحسينية وتقول مع الهاتفين: الموت للزناة.

وهمهما مرة أخرى: الموت للزناة.

أجابها شاب يرتدى قميصًا من الصوف العسكرى الخشن بصوت

يقطر بالظفر قادم من مدابغ مصر القديمة.

- سنذبح ممثلات الشيطان وسندبغ جلودهن.

فهمت العجوز خطأ وسيلة القصاص فقالت باستنكار:

- لماذا السيف.. الرجم.. الرجم يا ابن أمير الأمراء.

- ومن قال يا أمى إن الحد بالسيف.. لا تخافى فالأمراء الأئمة لا يخطئون فى تنفيذ حكم الله وكلمته لقد أعدوا لهن حصى مخصوص ثقيل كقطع الحديد حاد كشظايا الزجاج.

تملكت العجوز نشوى فاترة وتشوف يقارن بتشوف الصبايا وفارق ظهرها الحائط الأثرى المبتل تبغى الامتزاج بالجحافل الزاحفة ولكن قدميها وهيكلها الذى يبسته الشيخوخة والضنا لم يقويا على حمل كيانها ورغبتها المتوثبة فاستندت إلى هيكل سيارة أمريكية عملاقة تنتمى لما قبل عصر التبرئة، ضللت أشواقها المقهورة بتأمل الهيكل الميت وتخيلت نفسها قائدة للسيارة وأنه لا يوجد حظر على تملك السيارات وقيادتها حظر أقوى من جنون القدرة على تخيلها قيادة سيارة تحمل إطارات مملوءة بالهواء فى ولايات عصر التبرئة أقل عددًا من سنوات عمرها القادمة ولا يستخدمها سوى الأمراء الأقوياء وما أقلهم فى عصر التبرئة. أيقنت أن تحقيق حلمها أكثر استحالة من العودة بسنى عمرها إلى أربعين سنة مضت عندما كانت شابة يسرى فى جسدها نهر الصبا والرغبة التى لا تهن ولا تضعف، نهر قادر على إرواء كل شباب ورجال شارع ابن فودة وأزقة العباسية لو أرادت وشاءت، ولكنها شاءت أن تكون المنهل المخصص لكاتب المحكمة الكبيرة وقوبل سخاؤها وإيثارها بالجحود وسقطت تحت أقدام واقع أبيها الحوذى ومنافستها الدميمة التى فازت برجلها وهى ترتقع على منصة أبيها صاحب أكبر مستودع دقيق بالحسينية فدفنت أشواقها وأخرست مئات الألسن التى تصايحت من جسدها بالاحتجاج وتزوجت أصغر الحوذية سنًا وأقواهم من الذين رشحهم أبوها لتعوض بحرارته الجحود والهزيمة والغبن فى الصراع غير

العادل ولكنها لم تستمتع حتى باختيارها المفروض فقد كانت قوة زوجها وفتوته سببًا فى مصرعه إثر تورطه فى مشاجرة من المشاجرات التى تفنن فى الترتيب لها.

عذبتها الذكرى فأخذت تحاول فتح الباب ونجحت وهى تطلق تنهيدة عنيفة. أراحت عظامها على المقعد وأسندت رأسها إلى الهيكل الحديدى فشعرت ببرودة قارسة تنشب دبابيسها فى رأسها المتهالك رغم العصابة الصوفية التى أحكمتها حول الرأس المكدود فوضعت كفها كوسادة واكتفت بمشاهدة الجماعات المهللة المدعومة بدقات طبول تشعل بالضجة ميدان الظاهر متجهة إلى هدف لا تخطئه.. إلى ميدان عبدالله ابن الزبير (ميدان العباسية).

أقيم مكان نافورة المياه الملونة التى كانت تتوسط الميدان فناء صغير مربع من الخشب المطلى باللون الأسود، نجح رجال التبرئة بأرديتهم الهندية فى المحافظة على حرم يحيط بالفناء الخشبى ويعزله عن الجموع التى اكتظ بها الميدان والكوبرى العلوى الذى اعتبره الذين احتلوه ميزة لا تضاهى للمشاهدة وإلقاء الحصى، تسلق الصبية أعمدة النور التى لم يعد التيار الساحر يجرى فى أسلاكها إلا نادرًا مما دعا أعداء عصر التبرئة أن يطلقوا عليه «عصر الإظلام الدائم».

وعلى الرغم من أن جميع الأفواه تثرثر وتزعق والعقول تشرد وبعض غرائز الرجال تشرئب بهم إلى حيث تتجمع النساء المجبات والمنقبات إلا أن أنظار الجميع وعقولهم وغرائزهم تركزت بشكل أو بآخر على الفناء الخشبى الأسود تنتظر متحرقة إلى ساعة الصفر والتشفى والإبراء.

وجاءت اللحظة المنشودة عندما جلجل فى الميدان صوت القارئ من مكبر الصوت يتلو:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ثم ختم الآيات:

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

تصاعدت صيحات التكبير فى هدير صاخب عنيف عنف فقدان العقل وسعار الغريزة عندما يصبح العواء منهل الشبع الوحيد.

شقت سيارة أتوبيس حمراء أسدلت على نوافذها ستائر سوداء الجموع المحيطة بالفناء وأوقفت بمحاذاته، فتح الباب وهبطت منه امرأة فى نحو الخامسة والأربعين من عمرها ترتدى ملابس التبرئة النسائية يعلو وجهها مسحة من الهدوء المخلوط بالضغينة والميل للتحرش، أطلت من الأتوبيس تأمر من بداخله سرعة مغادرته، وكان أول من أطل برأسه من كان يطلق عليها قطة السينما المدللة وظهر رأسها الحليق مثيرًا للأسى وهى تتعثر فى خطوها، سقطت ولكن الحارسة القوية رفعتها بخشونة وأمرتها أن تتماسك، ولم تخط سوى خطوة واحدة حتى انهمر سيل الحصى بغزارة وخاصة من البقاع التى تحتلها النساء وتدفق الدم من رأسها فارتفع صوت من مكبر الصوت يناشد نساء عصر التبرئة القانتات أن يخففن من حماسهن وغضبهن على ربات الفجور حتى يقام حد الله بدون تجاوز أو شائبة. وفشل الصوت فى السيطرة على غلواء النساء وقد انفلت عياره ولم يجد المشرفون على إقامة الحد مناصًا من إعادة القطة المدممة إلى الأتوبيس وهددوا الجماهير بأنه لن يتم التنفيذ إذا لم يسد الهدوء. وساد الصمت والهدوء بعد ارتفاع صوت محرك السيارة ينعى إلى الجميع ما يفيد انفضاض الوليمة التى سال لعابهم للتلذذ بأطباقها العامرة الدسمة وعاد هدوء التمنى والاستجابة للتحذير بعد أن عدل وضع الأتوبيس ليلتصق بباب الفناء الخشبى وتحول الهدوء إلى رضا وسكينة. عندما ارتفع صوت القارئ بما ينبئ عن بدء الحفل وتبدد شبح الإلغاء:

﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾.

وما أن قال: صدق الله العظيم. حتى تطايرت من أيدى الألوف الجائعة قطع الحصى التى تملأ أكياسًا يحملونها وازداد قصف الفناء الخشبى حيث تقبع عشرون امرأة من كواكب السينما والجاهلية وعصرهن الذى دهمته كارثة أعتى من كارثة «سادوم وعامورة» نموذج

البطش الإلهى، ولم تمر دقائق حتى امتلأ الفناء الأسود بالحصى ولم تمر دقائق أخرى حتى اختفى بالكامل داخل تل من الحصى وفرغت أكياس الجميع حتى من المدد الإضافى الذى وزعه بعض الأتقياء الراغبين فى مزيد من الثواب وشفاء القلب الكظيم وراجت تجارة الحصى وفرغت أجولة التجار الذين أحضروا العشرات منها وباعوها عن آخرها مخالفين تعليمات ولوائح العصر التى تحرم الاتجار فى حدود الله، وشعر الجميع بالشبع والرضا وانسحب التجار بغنائمهم وسارع الأتقياء للحاق بصلاة الظهر التى اقترب ميقاتها. لم تقع حوادث تذكر سوى حادثة التقاط أحد الرجال حذاء مجاور له وقذفه نحو التل انفعالاً وحماسًا وثار شجار تبودلت خلاله اللكمات وكاد يتطور إلى استخدام السكاكين والمدى لولا مسارعة رجال التبرئة إلى فضه.

بدأت كثافة الجماهير تتفتت وتظهر أرض الميدان وهبط الصبية والأطفال عن أعمدة الكهرباء واستبدلوا بها تل الحصى، خفت كثيرًا حدة اللون الرجالى ولكن مازالت النسوة قابعات فى أماكنهن وأعينهن على التل الزلطى يرقبنه كأنهن يخشين نهوض الضحايا البائسات من الرمس الصحرى، رفعت إحداهن النقاب عن وجهها فى سلوك طائش إثر انشغالها قليلاً مع جارتها عن حراسة التل، ابتسمت مطمئنة بعد أن رأت جوانب التل شامخة لا يعيق رؤيتها النقاب والأطفال يتدحرجون على جنباته معلنين انتهاء مقاومة الغاويات وموتهن المؤكد وأن عالم الرجال أصبح لنساء عصر التبرئة يعشن فيه وبه من وراء حجاب مهما كان سميكًا غليظًا مجحفًا فما أوهنه وما أعدله فلا يقارن بتأثير من تمتعن بإعجاب وحب وشهوة رجال عصر الجاهلية والتبرج وأعلامه من نساء السينما.

شعرت المحجبات بالحرج عندما سمعن أذان الظهر فانفض سامرهن عندما رأين رجال «النهى عن المنكر» بشاراتهم الهلالية يجوبون الميدان ويتجه بعضهم نحو الكوبرى.

***

عندما عبرت فوقية عبدالقادر الميدان إلى الطرف الشرقى منه حيث محطة الأتوبيس شعرت بيد تربت على كتفها وصوت رجالى يهمس فى أذنها وعرفته، إنه شوقى الإبيارى، ذعرت وعندما التفتت رأته يرتدى نقاب امرأة يحمل شارة ولاية الظاهر، ضحكت منتشية وسارت بجواره حتى بلغا مبنى برج مصر للسياحة.

صعدا السلالم قفزًا حتى بلغا الطابق الثالث حيث يوجد مكتب مهجور كان مقرًا لشركة مقاولات فرنسية، وعندما أصبحا بداخله نزع ملابس النساء وظهر وجهه الوسيم بلحيته الشقراء!

- كنت سأجن لو لم أعثر عليك اليوم.. رأيتك وأنت تكشفين النقاب فلم أهدأ حتى جئت إلى رحابك والتصقت بك.. ألم تشعرى؟!

- ظننتك أختًا من عصر التبرئة.. تعبث بفخذى!!

- كنت سأطرحك أرضًا ولكن الزحام والخوف منعانى.

علقت بصوت ملوث باحتراف الزنا:

- الموت للزناة.. بشرط أن يكونوا غيرنا.

صرخ شوقى الإبيارى منزعجًا:

- مازلت داخل عباءتك!

لم يترك لها فرصة للتدلل ورفع الطرف وأسداله فاقتحم عليها عباءتها الزرقاء الفضفاضة وجردها من ملابسها الداخلية القليلة وشعرت بأنفاسه الحارة حارقة داخل العباء وقوله:

- إذا لم يذهب الجبل إلى شوقى ذهب شوقى إلى الجبل وانتزعه من وتاده.. تدحرجا داخل العباء على الأرضية التى مازالت مغطاة «بالموكيت» وهى تصدر أصوات الرغبة بدون تحفظ ولم تطق ومزقت العباء وأصبحت عارية وهى تتمرغ فى أرجاء المكان بنزق وطيش ذعر له شوقى، إنهما على بعد خطوات من مقبرة الخطاة، فقال والرغبة تسلبه هو الآخر السيطرة على نزواته:

- رجال التبرئة يجندون أثير الهواء للتجسس على العشاق.

ـ لا تخف إنهم مشغولون بمطاردة أتباع عصر الجاهلية.. أما نحن أبناء عصر أمير الأمراء فحبه فى قلوبنا وإخلاصنا لذاته وولاؤنا لعصره يسقط عنا الخطايا ويطهرنا من الخطيئة..

أليست الخطيئة كما تقول أن لا نخطئ؟!

علق شوقى الإبيارى وقد نفد صبره:

ـ سنظل نتكلم حتى أذان المغرب.. الخطيئة تنادينا.. لنقترفها، لا يجب أن نتدلل على النعمة حتى لا تزول وتجف القدرة فى أجسادنا كما جف جسد النهر.

قضيا وطرهما وأخذ ينظر إلى جسدها بأسى وقال:

ـ ما يحيرنى أن أحط نساء عصر الجاهلية كن يخجلن من عريهن السافر فى الفراش.

فهمت ملاحظته المشوبة بالاشمئزاز فتناولت عباءتها وغطت فخذيها ولكنه ظل يطنب فى وصف سلوك نساء عصر الجاهلية فأحست بالغيرة فقالت:

ـ كن عاهرات.. متاعًا لكل عابر سبيل.

ضحك حتى ذرفت عيناه الدمع وقال:

ـ أحضرت لك أشياء نسائية تهفو لها قلوب و... كل فتيات ونساء عصر التبرئة.

أخرج من حقيبته قلم أحمر شفاه ومرآة صغيرة وزجاجة عطر فرنسية، صرخت فوقية عبدالقادر ابتهاجًا وهى تمطره بالقبلات وتستحلفه أن يفصح لها عن مصدرها فقال بلا مبالاة:

ـ الشيطان.. أعبد الشيطان.

اختطفت قلم أحمر الشفاه ووضعته بين شفتيها وهى تستخدمه بشغف وتقول:

ـ الشفاه كادت تتشقق كأرض النهر.

وعندما فضت سدادة زجاجة العطر حذرها من المغالاة حتى لا

يفضحها الأريج فعلقت:

- ربما لفت انتباه أحد الأمراء وأخذنى محظية.

تصنع الغضب والغيرة ولكن أريج أحمر الشفاه والعطر نشط رغبته فناولها من حقيبته بعض الملابس النسائية الرقيقة التى حرمها عصر التبرئة فكاد صوابها يطيش وتقع مغشيًا عليها. أمسكت الأشياء النسائية وهى تردد مذهولة:

- من أين أتيت بكل هذا وكيف؟!

أمرها أن ترتديها ومسه الجنون هو الآخر وهى تخطر أمامه فانقض عليها فى صورتها الجديدة ومزقها فحزنت بشدة للأشياء التى لم تهنأ بها فهمس بصوت مرهق:

- سأحضر لك غيرها.

(٩)

جلس إسماعيل وزينب معلقة أبصارهما بجهاز التلفزيون الذى بدأ بثه النادر بعد أن أصبح ينقطع أيامًا كثيرة، وبدت آلات التصوير تنقل مشاهد حفل وضع حجر الأساس لمسجد التبرئة الكبير الذى اختير له موقع شمال غرب أهرامات الجيزة على مساحة عشرة أفدنة كانت تشغلها حديقة لأحد الوزراء السابقين وملهى ليلى وفندق. وتجمع الأمراء الأئمة لولايات القاهرة وباقى ولايات مصر بشاراتهم المميزة ولم تنقل عدسات التصوير وجوههم وتوقفت عند أعناقهم.

ارتفع صوت أمير الأمراء الأئمة بنبراته القوية المدببة الخشنة بكلمات أنهاها بتلاوة:

﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾.

انصرف وفى أثره الأمراء وأتباعهم وبقى المقاول المعروف معاوية القنائى الذى تتصل من اسمه السابق بتمثيلية تناقل الجميع أحداثها

بتدر وسخرية، أخذ يوزع الابتسامات على النذر القليل الذى بقى من رجال الدعوة وهو يعبث بشعيرات لحيته الناحلة الشيباء ويتأهب للإجابة على أسئلة الصحفيين.

ـ الأخ المهندس معاوية، معروف عنك المهارة فى إنجاز المشروعات الهندسية الضخمة، فهل سيتم إنجاز المسجد الكبير خلال الفترة القصيرة التى ارتبطتم بها؟!

ـ كلنا فى عصر التبرئة بلا ألقاب أو شهادات فنحن جند العصر فلا مهندس أو محامى بل مجاهدون فى سبيل بناء عصر التبرئة العظيم.

وسترتفع مآذن مسجد التبرئة وتطاول الأهرامات فى المدة المحددة بعون الله وبإخلاص كتائب عصر التبرئة الذين أنجزوا لطغاة عصر الجاهلية والردة أعمال ساهمت فى تثبيت سنواتهم المظلمة، وأترك لكم تصور حماسهم وهم يعملون فى إتمام المسجد العظيم.

ـ هل ما سمعناه حقيقة عن جلب أحجار المسجد الكبير من بطاح مكة؟!

ابتسم متصنعًا الدهاء وأجاب:

ـ هناك بعض الصعاب فى تحقيق هذا لأسباب لا تخفى عليكم، ولكن من هذا المكان الطاهر أعلن وأؤكد أن أى بناء سيرتفع فى أرجاء المعمورة لن يبلغ جزءًا من عظمة البيت العتيق فى مكة حتى وإن شيد من صخور مجلوبة من مكة فقبلتنا إلى الأبد شطر مكة ومسجدنا الأول فى مكة التى لم يجعل الله أفئدة من الناس تهوى إلى غيرها.

ـ تعلمون الظروف التى يمر بها عصر التبرئة وتكلفة إنشاء المسجد كبيرة فهل الحاكمية الطاهرة ستتحمل وحدها هذا العبء.

ابتسم المقاول متصنعًا الإصرار والتقوى:

ـ لم ينقطع مدد المجاهدين داخل مصر وخارجها ولن ينقطع.

سأله صحفى شاب يبدو عصبى المزاج ولحيته السوداء ترتجف من

اختلاج فكه الأسفل عما إذا كان سيقام فى المسجد ضريح لإمام الدعوة الأول الذى بدأ دعوته من مسقط رأس المقاول.

فأجاب وهو يمعن النظر فى المحيطين به:

- أعتقد أننى لا أستطيع الإدلاء بشىء مفيد فى هذا الموضوع وإن مجلس تأليف القلوب الذى يضم خيرة رجال الدعوة هو الذى له الكلمة الطيبة فى هذا المجال.

أنهى الرجل حديثه بتوجيه نداء لأبناء وبنات عصر التبرئة للتبرع بما يملكون من حلى وأموال لبناء المسجد الكبير وبالدعاء لأمير الأمراء بطول العمر والبقاء.

اختفت الوجوه والصدور ببدء نشرة المغرب والتى تصدرها بيان من جماعة بناء مسجد التبرئة الكبير المتحالفة مع جماعة الفتح الثانى لمصر بدعوة أخرى لأبناء عصر التبرئة للتبرع لبناء المسجد.

ضغطت زينب مفتاح التلفزيون بعصبية وهى تهدهد طفلها هيثم. نصحها إسماعيل قائلاً:

- انسى هذا الاسم.. اسمه حذيفة.. إنك تصيبينه بمرض انفصام الشخصية.. عندما يكبر فى أحضانك باسم هيثم وفى أحضان العصر القاسى باسم حذيفة.

أجابت زينب بتحد:

- ليس لى ابن اسمه حذيفة.

امتعض إسماعيل وتناول جريدة الحجر الأسود وتسلى بقراءة إعلانات تغيير الأسماء التى يتولى نشرها أبناء جماعة الفتح الثانى لمصر تحت عنوان:

﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ﴾.

نحى الجريدة جانبًا مستدركًا:

- سأذهب إلى بولاق.. أرسل أخى فى طلبى أكثر من مرة.

قالت زينب ومازال ضيقها مستمرًا:

ـ لم يعد فى البيت طعام ولا ماء ولا بوتاجاز لأطهو لهيثم بعض الزلط.

علق بانزعاج:

ـ نفدت الجراية الأسبوعية.. مازلنا فى منتصف الأسبوع!!

ـ إنها لا تكفى يومين.

ـ الفرج قريب.

ـ من أين الفرج والأمراء الأئمة وأتباعهم وأتباع أتباعهم يعيشون فى رغد وباقى عبيد الله يموتون جوعًا.. نحن نتحمل ولكن هيثم؟!

نظر إسماعيل نحوها ببلادة وإن اعتصر قلبه الحزن والشفقة.. فوجه زينب الذى كان ناضرًا كسوسنة نيلية.. أصبح يابسًا ضاربًا للون البنى كقاع النيل المجدب، ونفرت أوردة يديها كأمراس غليظة تكبلها.. انحرف مزاجها وأصبحت عصبية.. شكاءة مثيرة للنكد.

ـ أتريد أن تتخلص من ابننا وترسله إلى دور الموت التى يسمونها دور البراءة.. يحيا بين اللقطاء والمشردين؟!

ـ ماذا حدث لك يا زينب.. نسيت ما كنت ترددينه.. لنمت متماسكى الأيدى يطوينا قبر من الرمال الزاحفة من كل مكان، وأنه مهما كان طويلا وثقيلاً بالرمال والوجوه والعقول الصفراء فلن نيأس ولن نفقد الأمل.

قال هذا متجهًا نحو الباب فاغرورقت عينا زينب بالدموع ولان صوتها وهى تردد:

ـ إسماعيل.. إنك تزداد نحولاً يومًا بعد آخر.. أصبحت طيفًا.. التفت إليها قائلاً بحنان:

ـ خلقت لأحميك يا زينب.

ارتد بصره حسيرًا والحزن يجلد أحاسيسه، ستظل زينب فتنة حياته حتى وإن أصبحت هيكلاً ضامرًا فى ثوب أسود خشن.

لم يطق الانصراف قبل أن يقلبها ويستمد من أحضانها زاد التقوى والأمل.

(١٠)

بدأ سعد التهامى الأمير الإمام لولاية بولاق لقاءه الأسبوعى بأتباعه مرتلاً: ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾.

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾.

صمت قليلاً وهو يداعب مسبحته الخشنة المصنوعة من نويات البلح ثم ابتسم مخاطبًا:

ـ أذانك اليوم لصلاة العصر شابته ليونة واستخفاف الجاهلية يا شحاته!!

ـ أيها الأمير الإمام أرجو المعذرة واللطف.. إنها التخمة وسوء الهضم.

ضحك سعد التهامى على غير عادته حتى ظهرت قواطع أسنانه ثم أطرق وهو يقول:

ـ نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.

ـ اللطف أيها الأمير الإمام.. لقد وقعت فى الغواية ولحم الخراف المشوى والنساء والدفء أسلحة الشيطان التى لا تفل.

ـ يا شحاته جزاك الله خيرًا لاعترافك ولكن الشيطان لا يغوى عباد الله المخلصين

ـ رحمة الله وسعت كل شىء أيها الأمير الإمام والعصمة لله تعالى والأنبياء والأئمة الصالحين.

استاء سعد التهامى فقال محتدًا:

ـ العصمة لله وحده.. دعك من دعاوى الشيعة.

واستطرد معنفًا:

ـ ﴿ كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾.

ـ حاشا لله أيها الأمير الإمام.. ادع الله أن يوفقنا إلى أن نفعل ما نقول.

- كنت سأجعلك يا شحاته واليًا على السبتية.
- وما الذى تغير فى الأمر أيها الإمام؟!
- لم يتغير الأمر يا شحاته ولكن المأمور هو الذى تغير، لقد ركنت للدعة والكسل وأصبحت تبحث عن اللذات كما يبحث الصياد عن فريسة.

تجهم وجه شحاته النبراوى وقال مرتلاً:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾.

- ليس بيننا فاسق يا شحاته وعصر التبرئة يكفل الخلاص من كل الفسقة معطلى حدود الله وشريعته.. قصرك الجديد فى حى التوبة ملأته بالنساء.
- نعم ولكن لم أرتكب معصية فالقصر به زوجة واحدة والأخريات اشتريتهن بمال حلال.
- ومن أين لك المال الحلال يا ابن النبراوى؟
- من الله.. يعطى من يشاء بغير حساب.. ربح حلال.
- لقد تاجرت فى مال الله يا شحاته. أخبار الصفقة التى أبرمتها بمدينة الساحل الأول (الإسكندرية) عرفت تفاصيلها.. كيف تستغل الهبات والعطايا التى تصل لعبيد الله فى مصر لتتاجر فيها وتشترى عرض الدنيا وتبيع الآخرة بثمن قليل؟! أخشى عليك يا شحاته من غضب الله وسوء المآل.

أجاب شحاته النبراوى بثقة:

﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

- هدى الله يا شحاته يكون بتقوى الله فى السر والعلن.

صمت سعد التهامى برهة ثم ارتفع صوته بتؤده كأنه يدينه:

- قال تعالى فى محكم تنزيله:

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما قلبه وهو ألد الخصام ﴾.

امتقع وجه شحاته النبراوى وقد تأكد من قرار ونوايا أميره الإمام بعد أن تلى الآية الأخيرة فقال محتداً:

ـ أطلب التبرئة.. وتحكيم كتاب الله.

اربدت ملامح وجه سعد التهامى وأخذ يتحسس ما حدث على وجوه أتباعه وأعضاء مجلس إمارته الذى يضم عضوين من مجلس البيعة وعضواً من مجلس تأليف القلوب. تأجج غضبه لعلامات الممالأة والميل والتعاطف مع شحاته النبراوى. أطرق صامتاً.. إنهم شركاؤه فى القراض والمضاربة بأموال مسلوبة. قبض على حبات مسبحته كأنه يغربها وارتفع صوته بعد تخلصه من السماحة وردد حادثة القتل التى وقعت فى زمن عمر بن الخطاب وردد قولة عمر الشهيرة: لو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم.

تكلم سعدى الروبى عضو مجلس البيعة:

ـ إذا انتفت المصلحة سقطت الدعوى.

التفت إليه سعد التهامى بضراوة:

ـ ما هرفت به قاعدة وضعية وأنا أتكلم عن حدود الله التى لا يسقطها إنسان كائناً من كان.

التفت إلى سفيان الدمياطى عضو مجلس تأليف القلوب.

ـ أراك فارساً تتقاعس عن الجهاد.

اربدت سحنة الرجل وقال زاعقاً:

ـ إنك تهدر إيمان الجميع.. سأرفع الأمر إلى مجلس البيعة ومجلس تأليف القلوب.. فلا حصانة فى عصر التبرئة لأحد.

صمت سعد التهامى مهموماً وهو يرى سحب التآمر تزحف بظلامها وتمنع الغيث. انبرى شاب من مريديه المخلصين وهدر بصوته:

ـ أمثالكم سوس العصور.. تدينون بدين المنفعة.

هب سعدى الروبى قائلاً:

ـ إذا حلقت النسور فعلى بغاث الطير أن تلزم عشوشها.

- أين النسور.. أنتم كلاب ضالة.. مسعورة.. تسخرون عصر التبرئة المجيد لخدمة مآربكم الجاهلة.. تريدون أن تطفئوا نور الله بأطماعكم وتجارتكم الدنيئة.. تاجرتم فى وثائق التبرئة وحصص المياه وحصص البقول حتى حصص الموت تاجرتم فيها.

كان اندفاع الشاب مفاجأة وتوجيهه اتهامات صريحة لعضوى مجلس البيعة وتأليف القلوب صدمة حتى لسعد التهامى، ساد صمت مشحون بنذر ومحاذير، تقلصت أصابع سعد على مسبحته وهو يختلس النظر على شحاته النبراوى زميل المعتقلات والسجون والذى اشتهر بصلابته وقدرته الفائقة على احتمال التنكيل والتعذيب النفسى والجسدى الشديد حتى أطلق عليه اسم عمار بن ياسر.. ماذا دهاه؟! كان يتحرق حماسًا وتفانيًا فى محاربة السلطة الجائرة سلطة المال والجاه وعندما جاءت حكومة الله وحاكمية القرآن قلب لها ظهر المجن.. هل هو قانون النار الخالد تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله.

حملق فى وجه شحاته النبراوى يبحث عن بصيص نور يقوده إلى حل اللغز فى أعماق الرجل ولكنه لم ير سوى ملامح وجه شحاته الأليف الذى يحمل سمات الصرامة والبسالة والاستعداد للتضحية، زفر بغضب كأنه يسأل حيرته: أين الخلل إذن؟!

(١١)

جلس صفوان الشيتى تحت أقدام سوسن النمرسى وهو ينشد:

- نحن أبناء التبرئة نعشق مئات وآلاف.

أحببنا هند وليلى ونائلة وعائشة وعفاف.

نحن أبناء عصر التبرئة نعبد بنات حواء.

نقتات برضابهن وتراب أقدامهن والهواء.

- لعب المخدر برأسك؟!

ـ المخدر أنفاسك وعيناك السوداوان يا هند.

ـ اسمى سوسن وعيناى عسليتان.

ـ اسمك وعينك السابقة ينتميان لعصر الجاهلية ونحن نعيش عصر التبرئة.

ـ لن أغير اسمى بالسهولة التى تطلق بها لحيتك.

قالت هذا وقبضت على لحيته السوداء الكثة واعتصرتها بكفها.

ـ اتركيها يا سليلة الشيطان.

لن أتركها.

ـ ستتحول إلى سهام تطعن صدرك البض يا هند ببركة أمير الأمراء.

ـ آه.

ـ ألا تخافين؟!

ـ المرأة لا تخاف الرجل الذى يعشقها.

ـ ألا تخافين القصاص؟!

اهتز جسد سوسن النمرسى بعنف وهى تلمح فى عينيه نظرة تحمل من الخطر قدر ما تحمل من الشهوة بعد أن تخيلت كلمة القصاص وقد تحولت إلى سيف دموى يجز كل يوم عشرات من الرءوس فى ميدان عبدالله بن الزبير (العباسية) تحملها سيارات حمراء ترفرف عليها عشرات من الأعلام السوداء إلى صحراء مدينة نصر.

همست برعب:

ـ سمعت من إذاعة لندن أن ضحايا حفلات القصاص بلغت مليون رجل وامرأة.

ـ إننا ننفذ حكم الله.

أسدلت سوسن أطراف ثوبها تدارى عريها، ضحك صفوان بعربدة للفزع والرعب الذى أحدثه ذكر كلمة القصاص، قال يهدئ من فزعها:

ـ لا تخافى فالاقتصاص منك معناه موتى وأنا أحب الحياة.

أمسك جريدة الحجر الأسود وأراح قدميه الضخمتين على وسادة من

الإسفنج وطلب من سوسن أن تعد كوبين من الشاى، أخذ يقرأ سطور الجريدة وأعمدتها المرصوفة كأحجار سوداء تربطها خطوط من الأسمنت الأبيض. توقف بصره على عنوان ضخم يتصدر الصفحة الأولى:

«أمير الأمراء الأئمة يستقبل سفراء الأمم الأجنبية ويشكرهم على تأييدهم».

«أمير الأمراء الأئمة يقول: جفف الله النهر تحت أقدام الظالمين. وسيمنح المؤمنين ريًا دائمًا ونهرًا لا يجف».

«أمير الأمراء الأئمة يجتمع بمجلس البيعة بدار السقيفة لمدة عشر ساعات».

جاءت سوسن تحمل أكواب الشاى وإبريقًا مملوءًا بالماء المثلج، دفعه بقدمه وهو يعتدل فى جلسته فانسكب على البساط الأحمر الذى يغطى أرضية الحجرة، قال بسخط:

- يوجد آلاف فى الخارج يحتاجون لقطرة من هذا الماء.

علقت سوسن بدلال:

- لدينا منه الكثير.. خزان الفيلا العلوى واسع ومملوء.. الراقصة التى كانت تملأ الفيلا بعيدة النظر.. توقعت ما حدث.

أجاب صفوان بتعبير محايد يحمل من التشفى قدر ما يحمل من التعاطف:

- لها الجحيم مستقرًا ومقامًا.

قالت سوسن كأنها تناجى نفسها:

- كنت أتمنى أن أملك حجرة فى مثل هذه الفيلا.

- وأصبحت الآن تملكينها. العديد من الحجرات.. ردهات.. أكثر من حمام.. آه رأيت الأوثان الخليعة التى بثتها فى أرجاء الحمام.

- كانت تماثيل جميلة من المرمر.

- أيتها الخليعة المتهتكة.. تماثيل عرايا الرجال جميلة؟!

- أتغار من تماثيل!!؟
- أغار من الرذيلة.. أمقت الخطيئة.

جلست على ساقه وقالت بضعف وهو يضغط على صدرها:
- وماذا تسمى ما تفعله الآن؟!
- أمارس حقى فيما أملك.. اشتريتك من نفسك.
- اشتريتنى بثمن بخس.
- حسبنا الله ونعم الوكيل يا هند.. لقد أحل الله البيع والبائع والشارى أجرهما على الله.

اقتحمت شمس العصر وأذانه الحجرة الغربية حيث كانا يمارسان صلاة شيطانية لا يغطى جسديهما سوى حبات العرق.

(١٢)

امتلأت حارة «جاليش العسكر» بعشرات من الخيام المصنوعة من القماش البالى وقد افترشها مئات من الفلاحين الذين قدموا من أنحاء الدلتا لإحياء مولد السيدة زينب.

شق إسماعيل التهامى طريقه بصعوبة بين الأجساد النحيلة والتى ارتسمت على قسمات وجوه أصحابها بقسوة آثار مخالب الكارثة التى مازالت تهلك الحرث والنسل فوقف مضطرًا أمام جسد امرأة عجوز وقد التف حولها البعض يحملقون فيها بعيونهم الغائرة وقد ميزت نظراتهم بلادة التعود على رؤية الموت والهلاك فى كل لحظة.. ضغط جبهته بشدة ليتأكد من أنه مازال حيًا عندما سمع صوت غلام يقول بوقاحة:
- إنها ماتت.. كفى قرفًا.. سأنادى رجال التبرئة ليحملوها إلى الجبل.

ارتفع صوت مازالت به طراوة الحياة:
- إنها مازالت حية.. تتنفس.

أجاب الغلام بعناد كأنه يستكثر على العجوز أن تتنفس وتنافسه فى

استنشاق الهواء.

- الموت أولى بها.

علق أحد الشهود بدهاء:

- إنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.. أين أقاربها؟!

أجاب الغلام:

- أقاربها فى هذه الخيمة.

أشار إلى خيمة قريبة وقفز داخلها وسمع صوته الرفيع العنيف وهو يسب من بها ويتهمهم بأنهم يريدون الاستيلاء على ثروتها، خرج يحمل بين يديه كومة من القماش الأبيض وهو يصيح فى وجه رجل فى الأربعين من عمره خرج فى إثره ليمنعه:

- جهزت القماش ككفن لها.

فى لحظات لف جسد العجوز فى الثوب «البفتة».

رمقه إسماعيل بإعجاب كأنه يعتذر عن سوء حكمه السابق وشق طريقه بارتياح وقبل أن يبلغ نهاية الحارة التفت خلفه فلم يجد أثرًا للذين تحلقوا حول المرأة ولا ثوب البفتة الذى دثر جسدها الميت وظهر كيانها المستلقى على الأرض داخل ثوبها الأسود كأنه علم عصر التبرئة ورمزها الهالك.

صعد بسرعة إلى مسكن صديقه حيدر سامى وغصة فى حلقه تتيح له التنفس بصعوبة، استقبله صديقه الذى عاد إلى مصر منذ فترة وجيزة بترحاب قائلاً:

- أهلاً بشقيق خليفة أمير الأمراء.

لجأ إسماعيل إلى أقرب أريكة بجوار نافذة تطل على مسجد أحد أمراء المماليك البحرية وأغمض عينيه عله يتخلص من المشهد المقزز الذى مزق مشاعره.

- أراك مرهقًا يائسًا!!

قال حيدر سامى هذا وعاد وهو يحمل زجاجة من الخمر عندما رآها

إسماعيل ذعر. خاطبه حيدر باسم التدليل:

- لا تخف يا إسماعيل فرجال التبرئة أصدقائى كما أنك من آل التهامى رضى الله عنهم.

اعتدل إسماعيل قائلاً:

- اضبط تصرفاتك.. القادمون من الخارج يوضعون تحت رقابة مشددة.

- رقابة مشددة.. لقد دفعت الجزية عدة مرات، مرة فى ميناء الإسكندرية ومرة فى محطة باب الحديد ومرة لأمير ولاية الخليفة.

- أنا مندهش تهجر مصر وهى مليئة بمتع الحياة التى تعشقها وتعود إليها وكل كائن حى يطارده الفناء؟!

- جئت لأعيش الأيام المجيدة.. أليست أيام التبرئة الخلاص واللطف كما يقول أتباع أخيك؟ فالمجد فى نظرى أن أعيشها فى قلب حضارة الغرب ولكنى لم أعثر عليها فالحياة هناك غالية الثمن والموت أثمن فهذه الحضارة تقدر جيداً كل شىء وتعقل كل شىء وتعقل كل أمر.. الحياة حياة والموت موت فلا خلط أو نشاز، وهنا اختلطت الأمور وامتزجت الأشياء وجئت لالتقاط أعظم صورة للحظة نادرة فى حياة الشعوب وسأعود لشعوب الغرب بها لترى فيها نفسها عندما كان يطحنها الطاعون الأسود أو عندما وطئتها جحافل البرابرة طالما تسكعت فى أوربا أبحث عن دور، واكتشفت أننى ممثل فاشل قادم من الشرق تائه بين ملايين من الممثلين المرموقين الذين يجيدون أداء كل الأدوار ببراعة، سأعود لهم يوماً لأكشف لهم سحرهم الواهن وسيصبحون أمامى أضعف من سحرة موسى سأجسد لهم لغز الموت والحياة كما لم يفعل كل مؤرخيهم وفلاسفتهم ومفكريهم.

صمت حيدر سامى على تمتمة إسماعيل التهامى:

- يبعث الحى من الميت ويبعث الميت من الحى وهو على كل شىء قدير.

- قول جدير بآل التهامى.

ابتسم إسماعيل بأسى.

سمعا دقات متسرعة على الباب، توقع إسماعيل رؤية رجال التبرئة ولكنه لمح فتاة اقترب منها حيدر سامى وهو ينزع النقاب عن وجهها ويقول:

- أفزعتنا يا امرأة.

أجابت المرأة بصوت عذب:

- أنت تفزع مصر كلها.

ناولته لفافة من الورق وهى تقول:

- خفت عليك من الموت جوعًا.

فض حيدر سامى اللفافة وصاح طربًا:

- أوزة كاملة.. خبز.. سلطة؟!

- أنسيت من أنا؟!

- لم أنس ولكنها لا توجد على مائدة أمير أمرائكم.. لا عجب يا ابنة اللوزى فالتجار سادة ملوك كل عصر.. يجيدون توقع كل أمر، لهم حاسة اليهود السادسة، لهم صبر أيوب ورؤيا يوسف.

صمت ثم قبض على خصر المرأة واستطرد:

- وحسنه أيضًا.

حاول الابتعاد عنها ولكنها التصقت به، ابتعد عنها مخاطبًا إسماعيل:

- أرأيت يا إسماعيل، حيث تريد وضع قيد على كل شىء يصبح كل شىء طليقًا مباحًا.. إنها تتصرف كأنه لا يوجد أحد من آل التهامى.

نظرت المرأة إلى إسماعيل كأنها تراه لأول مرة وقالت باستهانة:

- أرجو أن تلتمس لى العذر فأنا أعشقه.

علق حيدر سامى على تهافتها:

- سأكون مشغولاً معها حتى المساء.

نهض إسماعيل يبغى الانصراف ولكن المرأة منعته بقولها معاتبة وهى

تسدل نقابها وتمرق إلى الباب..

- سأعود بعد دقائق ومعى امرأتان لصديقك.

ضحك حيدر وهو يرى إسماعيل يتخبط فى حجله:

- لا تخشى شيئًا فلن تعلم زينب شيئًا عما سيحدث..

عادت المرأة تقود امرأتين وقدمتهما على أنهما أختها وابنة عمها.

صاح حيدر سامى مداعبًا:

- جواهر آل اللوزى أكبر تاجر عطارة فى مصر والشرق بين يدى إسماعيل التهامى! حكمتك يارب.

تأمل إسماعيل الفتاتين التى تختلط فى ملامحهما سمات السلالة الشركسية والعربية :القوام الفارع والأرداف المكتنزة والعيون الزرقاء التى تطل على استحياء وخفر من وجه خمرى اللون مستدير يتوّجه شعر أسود شديد النعومة.

- ما بك يا إسماعيل ستظل تحملق فى حسن بنات اللوزى كصبى مراهق!!

قال هذا حيدر سامى ودفع بالفتاتين بين يديه..

تذكر زينب العظيمة التى تسكن خلايا جسده وعقله ووجدانه ولكن يديه أصبحت مكبلة داخل نهود وسيقان شديدة الحرارة والنعومة.

انتبه إسماعيل على صوت أذان العشاء وصوت المرأتين وقد تخليتا عن الخفر والحياء وهما تتراهنان مع أيهما سيقضى بقية الليل.

ارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى حارة «جاليش العسكر» وعند رأس الحارة وجد الغلام يقف شامخًا.. ألح عليه خاطر ساذج فسأله:

- ماذا فعلتم بالمرأة العجوز؟

أجاب الصبى بصوت غليظ لم يعرف سوى القسوة والمرارة:

- أكلناها!!

سقطت الكلمة فى أمعائه.. شعر بالغثيان وبرائحة كريهة فى أنفه تطرد كل عطور بنات اللوزى وسحرهن.

(١٣)

امتلأ ميدان ابن تيمية (ميدان التحرير) بجماهير احتشدت على الرغم من الرياح الرملية الصفراء التى غطت سماء القاهرة منذ الصباح الباكر وغمرت اللحى والرءوس بذرات الرمال، جاهدت الجموع فى اتخاذ مواقع تمكنها من المشاهدة واتقاء لفحات النار المنتظر اندلاعها فى كومات الكتب التى ملأت قلب الميدان، وتسلى الصبية بابتكار لعبة تمزيق الكتب بسرعة والتهليل لمن يستطيع أن يمزق أسرع من منافسه وإطلاق الصفحات فى الهواء الأصفر المحموم. وشغلتهم اللعبة الجديدة عن اللحاق بصلاة الظهر رغم ظهور رجال النهى عن المنكر بكثافة فى ميدان ابن تيمية.

وبعد صلاة الظهر ظهر على الليثى الأمير الإمام لولاية الخليفة وأمير الدعوة وإمام حلقة بمجلس تأليف القلوب وعضو بمجلس البيعة، فى موكبه المتنافر المعروف عنه فقد كان يمتطى صهوة جواد أسود اللون يحيط به عدد من راكبى الدراجات البخارية من رجال التبرئة.

وقف على المنصة الحجرية وتناول مكبر الصوت وأعلن عن بدء حفل الخلاص من رجس الشيطان بكلمته التى بدأها مرتلاً:

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر. ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾.

أنهى كلمته مرتلاً:

﴿ يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلا. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا. وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾.

تناول الشعلة وألقاها على كومات الكتب الملوثة بالبنزين وارتفع الدخان الأسود يعانق السحب الصفراء وهتافات التكبير تكاد تقتلع

الأبنية التى مازال بعضها قائمًا متماسكًا فى الميدان.

تساءلت امرأة أسفرت عن وجهها قليلاً وهى تخاطب شابًا شعرت بساقيه تحاصر ساقها اليمنى!

- من «داروين» هذا الذى يحرقون كتبه؟!

- خواجة دجال يدعى أن الإنسان أصله قرد.

شهقت المرأة وهى ترمق ملامح الشاب الوسيم واستسلمت تمامًا لحصار ساقيه.

انشق من قلب الجموع حيدر سامى بآلة التصوير الدقيقة التى يحملها على هيئة كتاب صغير رفعه بين يديه يصور الحدث النادر من فوق سور مبنى وزارة الخارجية القديم. اكتشف أن آلة التصوير أصابها عطل. تلفت حوله وهداه تفكيره إلى الانسحاب إلى داخل مبنى الوزارة. جلس على سجادة فارسية فاخرة تبوح بثرائها رغم الأترية التى تحجب ألوانها. مرر يده عليها.. لا يوجد مثلها فى قصور أثرياء أوربا ومع ذلك بقيت فى مكانها فى هذا المكان المهجور لا خوفًا من القصاص وعنف الأمير الإمام لولاية قصر النيل ولكن لحقيقة لا تغطيها الرتوش فعندما ينتظر الإنسان الموت فلا يعنيه أن ينتظره على سجادة فارسية أو على الأسفلت.

سمع أصواتًا فالتفت خلفه واستطاع أن يرى فى الركن البعيد رجلاً وامرأة عاريين وقد شملهما رعب المفاجأة، أطلق ضحكته الشهيرة وأشار لهما أن يرتديا ملابسهما. استجاب الرجل بسرعة وفى لحظة أصبح داخل ملابس رجال التبرئة. أما المرأة فظلت عينها مثبتة على آلة التصوير المفككة. طمأنها بأنه لم يلتقط لها صورًا فبدأت جوارحها تسترد حيويتها. أبعد بصره عنها وهى ترتدى ملابسها القليلة المكونة من جلباب سابغ وأخفت شعرها الأسود الغزير داخل إيشارب أسود وتوشحت بنقاب أسود.

اقترب منها وسألها:

- متزوجة؟!

- نعم.. أرملة.

- ألا تخشين الرجم؟!

- زوجى قُتل منذ عام.

- يبدو أنك مثقفة.

- كنت أعمل مهندسة بالتلفزيون.

- وماذا كان يعمل زوجك؟!

- أستاذ فلسفة بجامعة الأزهر.

- أستطيع استنتاج تهمته؟!

- اتهموه بالزندقة والاتصال بأهل المنفى الاختيارى.

- ألديك أولاد؟!

- طفلة أخذوها منذ عام وأودعوها إحدى مدارسهم التى يسمونها «مدارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

- وأنت.. أين تسكنين.. أقصد فى أى ولاية؟!

- ولاية قصر النيل..

- تعيشين بمفردك؟!

- لا، انضممت لحريم الأمير صفوت غانم بقصره ببستان قريش.. ثم طردنى بسبب وشاية إحدى زوجاته.

- ألم يتزوجك؟!

- لا، ابتاعنى يوم ذهبت إليه أشكو من انقطاع الجراية بعد قتل زوجى وسحب وثيقة التبرئة.

- وكيف عشت طوال السنة الماضية؟

- ما أكثر مساكن الولاية الشاغرة.

- والطعام؟

- ما يجود به رجال التبرئة.

قالت هذا وتحسست كيسًا من البلاستيك تستوثق من وجوده طمأنها

وتناوله فوجد به بعض قطع الخبز الشمسى وقطعة من الجبن الجاف. شعر برغبة فى البكاء وإحساس عنيف باليأس والقهر فى حضرة السيدة التى لم ينل من بهائها واحترامها فى نظره حالة الرعب التى صاحبت حركاتها وسكناتها وأضفت عليها أنوثة لم تشره فلم يرها بعينيه الخبيرتين بالنساء، وتذكر بنات اللوزى الداعرات اللاتى ينعمن فى عصر التبرئة بالرذيلة والحماية. حاول كبت دموعه وهو الذى عرف فى عالم النساء بصاحب القلب الجليدى والساق الملتهبة كما كانت تصفه تيسير اللوزى وتتهمه بأنه يدهن ساقه بمسحوق الشطة.

سأل المرأة:

- أتأتين معى؟!

أجابت باستسلام وهى ترمق ملامحه الوسيمة المتعاطفة:

- أنا تحت أمرك.

- أنا لا ألقى أوامر.. أعرض عليك العمل معى.

- وماذا أعمل؟!

- ألست مهندسة تلفزيون؟!

سمعا جلبة تتناهى من الخارج. طلبت منه الاختباء وهى تناشده بذعر:

- رجال التبرئة.

ولم يجد سوى مكتب فى نهاية الردهة الطويلة انزلق تحته وسمع أصواتهم يسألون عنه متوعدين وسمع صوتها الممزق يجيب:

- ذهب منذ دقائق.

ساد صمت مريب بدأ يتبدد فحبس أنفاسه ورفع رأسه فرأى ثلاثة من رجال التبرئة قد جردوها من ملابسها مرة أخرى وانقضوا على جسدها من كل جانب. شعر بالغثيان وكره رجولته وتمنى استئصالها ولم يستطع منع حواسه من متابعة ما يحدث وهو يحاول إيجاد تبرير من أفلام الجنس التى شاهدها وصور الدعارة التى عايشها فى أرجاء ألمانيا

وتبدد تبريره الانفعالى أمام تحليل العقل وهو يرى أمامه شرذمة من الكلاب الجائعة تنهش أنثى بشرية، أما هناك فكان الجنس جزءًا من تيار الحياة فى مجتمع متحضر ينساب فى مجراه بتلقائية وبلا شذوذ الاغتصاب.

نهض من مخبئه بعد انسحاب رجال التبرئة بجلابيبهم البيضاء وسراويلاتهم السوداء. اقترب من المرأة ورآها جسدًا مشلولاً وإن ارتفع تنفسها وعيناها ترسل بريقًا معذبًا مجنونًا، تخطى ساقيها واتجه إلى الخارج ثم استدار واقترب منها وصفعها بقوة تدفق من جرائها الدم من فمها. شعر بالرضا وهو يسمع نحيبها فتنهد وقال:

- أخيرًا عادت روح الأنثى الإنسانية إلى كومة اللحم.. فشل آخر لرجال التبرئة وعصرهم فى عمل غسيل جنسى لامرأة من بقايا نساء مصر.

أصبح مرة ثانية فى ميدان ابن تيمية ومازال على الليثى يعدد بصوته الذى يقطر دمًا أمجاد وإنجازات عصر التبرئة وكيف تم تكفير ما قبل عصر التبرئة والهجرة من أرض الكفر حتى رطبها عصر التبرئة بكوثره العذب.

همس لنفسه: نعم التكفير هربًا من التفكير والهجرة إلى بلاد النفط والدولارات البترولية.

(١٤)

توجه إسماعيل التهامى إلى حارة «سارى عسكر» مشتت البال فمنذ أكثر من شهرين والألم الحاد يعتصر أذنه اليمنى بحدة نغصت عليه صحوه ونومه ولم يشأ إخبار زينب إشفاقًا وحبًا، يكفيها ما تعانيه هى الأخرى وتعبر عنه عصبيتها الزائدة التى حولتها إلى امرأة لم يعرفها يومًا وهى التى شدها إليه هدوؤها ومنطقها المطمئن الذى لاذ إليه فى السابق أيام الخضرة والنهر والحب ولم ينل منه الحزن والظلم فكانا

يشعران فى الزورق العائم البائس بأنهما أقوى من جبروت سكان القصور الذين يعيشون على ضفاف النهر الثابتة الدعائم، طالما حلما بالتغيير وأن تصبح الضفاف أكثر وداعة وأمنًا من سطح النهر ولكنهما فقدا النهر والضفاف وأصبحا ألعوبة فى يد الفناء يضيق خناقه يومًا بعد يوم ملوحًا بسيف البطش المعلق رآه كثيرًا فى عينى زينب مرآتى حياته الماضية والحاضرة اللتين طالما شغف بتألقهما بالثقة والحب أصبحتا مهددتين باليأس والكراهية.

اقترب من حارة «سارى عسكر» التى لم يقف على مشارفها منذ شهور وفوجئ بالتغيير الشامل فقد اختفت عشرات المنازل التى كانت تصطف متساندة على الجانبين وأقيمت فى منتصفها نقطة تفتيش يحتلها ثلة من رجال التبرئة الذين يعلقون شارة ولاية بولاق.

أبرز وثيقة التبرئة فأفسح له الرجال وكل سمتهم ينتمى لقرون طويلة خلت؛ لحاهم، جلابيبهم، نظراتهم، ما عدا المدافع الرشاشة الحديثة التى يعلقونها على صدورهم.

تمنى أن يرى بيت التهامى بيت الطفولة والصبا والشباب وبوتقة انصهار الدم الإفريقى الذى تسلل مع مياه النهر المقدسة والدم العربى الذى حملته رياح الجبر والتاريخ الأزلية، ولكنه رأى قصرًا شبيهًا بالقلعة أو قلعة تشبه قصرًا واختفى بيت التهامى الذى كان يخشى على جدرانه الهشة من أنفاس وترتيلات أخيه الحارة الساخنة. كان جليلاً يبعث على الاحترام والرهبة ببوابته الصدئة التى استبدلت ببوابة ضخمة من النحاس انتزعت من إحدى قصور أهل المنفى الاختيارى، ولكى يسمح له بعبورها أبرز وثيقة التبرئة وشعر بالوجل وهو يخطو داخلها ليصبح داخل فناء واسع مرصوف بالرخام الإيطالى الأسود ليست له رائحة أرض ونخلة التهامى الكبير واختفت جدران الربع المصنوع من الحجر الجيرى وحلت محلها جدران مزينة بشرائح الرخام.

قاده شاب صغير حليق الرأس خفيف اللحية يتمنطق بمدفع رشاش،

عبر ردهات ودهاليز وحجرات وأخيرًا وجد نفسه فى مواجهة أخيه سعد التهامى وقد جلس وخلفه لوحة من القماش الأسود يزينها شعار ولاية بولاق باللون الأصفر.

نهض سعد مرحبًا بشقيقه، طلب من أتباعه الانصراف وأصبحا وحدهما، ورأى إسماعيل شقيقه الذى يكبره بعام واحد قد ضرب الشيب فى لحيته والتى كانت منذ شهور حالكة السواد، اكتسى جسده ووجهه بدانة ظاهرة، وعيناه اللتان كانتا لامعتين بالحماس والتفانى ونشدان العدل والحق أصبحتا ساكنتين بالبلادة والخمود والرغبة فى الفرار. وبدأ شقيقه الأمير الإمام لولاية بولاق يتكلم وظهرت أسنانه الناصعة البياض القوية، ربما هى الوحيدة التى تبقت من أخيه على هذا القدر من الصلابة.

وسأله:

- كيف حالك يا إسماعيل وحال زوجتك وابنك التهامى الصغير؟!

- كما ترى.. ننتظر الاندثار كالملايين الذين دفنوا فى قاع النهر الجاف بعد أن ضاقت بهم الصحراء المحيطة بالقاهرة.

- ألا تكفى الجراية الأسبوعية.. الفرج قريب ولا تقنطوا من رحمة الله.

تذكر زينب وكلماتها عن الصبر والحصار حتى الموت. سمع صوت أخيه:

- أرجو أن تقدر عدم اتصالى بك قبل الآن يا إسماعيل.. أنت تعرف الظروف فكل فجر يأتى بمشكلة جديدة.

ابتسم إسماعيل يخفف عن أخيه وطأة الإحساس بالجحود.. قبل عصر التبرئة كان يحسد أخاه على خلو باله وزهده وانشغاله عن متاعب الحياة اليومية وغيابه عن منغصاتها فى أحضان صومعته وأفكاره، كان سعيدًا حتى وهو يساق إلى السجن وكان يردد: السجن مع الأفكار الحقة هو الحرية، كان متفائلاً رغم التنكيل والمطاردة، لا تفقد ابتسامته

عذوبتها ولا صوته وسامته ولا عقله رجاحته. ما له الآن كاسف الباب حزينًا مفزوع الحركة والسكنة، لقد أصبح رجل دولة ينبثق الخطر من تحت أقدامه التى يريحها على سجادة حمراء اختفى فى أهدابها كاحلا قدميه اللتين رآهما ضامرتين صغيرتين واللتين طالما كانتا موضع تندر الصبا كلما ذهبا لشراء أحذية. كان أخوه يملك أقدامًا ضخمة كأقدام رجل الثلوج والآن أصبحت كأقدام نساء الأتراك.

أقبلت فتاة تضع نقابًا رقيقًا على وجهها تحمل أكوابًا من الليمون المثلج وضعتها على منضدة صغيرة وهى تختلس النظر إلى إسماعيل.

رمق سعد مؤخرتها وعندما اختفت بادر أخاه بسؤاله:

ـ ما صلتك بحيدر سامى الانكشارى؟!

اعتدل إسماعيل وقد فغر فاه دهشة فهو لم ير حيدر سامى منذ ما يزيد على ثلاثة شهور.

سمع صوت أخيه يأتيه مرتلاً:

﴿ قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

أنهى سعد مقدمته المرتلة:

﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ .

ظل إسماعيل صامتًا لا يفهم مغزى ما يسعى إليه أخوه بسؤاله عن حيدر سامى وأضاف إلى اسمه الانكشارى. ازدادت حيرته عندما جاء المسئول الدينى فى الأنساب فى ولاية بولاق وبدأ يقرأ من بعض الأوراق التى أطلق عليها أخوه كتاب نسب المرتد حيدر سامى الانكشارى.

تذكر صديقه وتقييمه لحكم الأمراء الأئمة وقوله: لقد استخدم البنزين فى إخماد الحريق المشتعل فى مصر التى تفتقر إلى نقطة ماء.

وجاءة صوت أخيه المهتز:

- أنت لا تعرف أن على الليثى يستخدم علاقتك بحيدر سامى للنيل منى. حملق إسماعيل فى وجه أخيه ببلاهة غير مصدق أن شقيقه سقط فى بئر السياسة ومستنقع الصراع على السلطة الذى يشعر به الجميع يكاد ينفجر مسلحًا بين ولايات الأمراء الأئمة.

أتى سعد التهامى على كوب الليمون دفعة واحدة وقال:

- فى اجتماع مجلس تأليف القلوب اتهمنى على الليثى بأننى أتعاطف مع الملحدين والمشبّهة وعلى رأسهم المصور المارق صديقك حيدر سامى.

أطرق إسماعيل صامتًا مندهشًا كم أنت خطير يا حيدر تؤرق بال سلطان عصر التبرئة وأميره السفاح على الليثى وتصيب بالرعب شقيقى درة آل التهامى والتى قد تزين تاج سفاح أو مغامر بحسن نية.

أجاب إسماعيل:

- لا أعرف شيئًا من نشاط حيدر السياسى.

- إنه خائن يتصل بكل القوى الخارجية التى تناوئ عصر التبرئة.

- كيف ومصر كلها معزولة عن العالم؟!

- عزلة الحق عن الباطل.

استوعب إسماعيل جوانب الاتهام الموجه إلى صديقه.

- ولكن ما أعرفه عن حيدر أنه لا يعمل بالسياسة ولا تشغله كثيرًا.

قال هذا وتذكر بنات اللوزى الأقداح الذهبية والنبع الدائم الذى يشغل مئات كحيدر طوال عمرهم المديد عن التفكير فى الفرق بين المذاهب والمفاضلة بين عصر التبرئة وعصور الخطيئة.

- إنه خائن يراسل وكالات الأنباء الأجنبية.

- ولكنكم تسمحون لكثير من الدول بمكاتب تمثيل سياسى وهناك كثير من رعايا أمريكا وغيرها يتنقلون بين ولايات مصر بوثائق أهل الذمة.

تغاضى سعد عن ملحوظة أخيه وقال:

- إنه يرسل للخارج صورًا لما يدور بمنازل الأمراء الأئمة.

علق إسماعيل ساخرًا:

ـ وهل ما يدور بهذه المنازل مخجل إلى هذه الدرجة؟

رمقه شقيقه بنظرات عاتبة مشفقة:

ـ إننا أمام خطر داهم لن يدرأه النظر إلى المخجل وغير المخجل وأرجو أن لا تسمح له بأن يحتمى فى ظلك.

مازال إسماعيل غير مصدق أن درة آل التهامى شقيقه سعد أصبح بهذا الضعف والخور والهزال الروحى فقال له وهو ينصرف:

ـ أخى سعد إذا كانت علاقتى بحيدر فى نظر خصومك تحرجك فسأقطعها ولكن أؤكد لك بأن حيدر فى غنى عن حماية أحد.

(١٥)

وقف على الليثى الأمير الإمام لولاية الخليفة مستهلاً خطبته مرتلاً: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن﴾.

نحمد الله أن أضاء بصيرتنا بكتابه ولم يجعلنا من الذين يزينون الملك للطغاة ويطلقون على خلفائهم من باب التزندق «أمراء الكافرين» وأشاعوا فى تاريخنا الخلاعة والمجون والتلذذ بارتكاب الكبائر، وقالوا بعظمة الأمة وعطلوا حكم الله وآزروا خلفاء الجور الذين اغتصبوا الحكم بعصبية الجاهلية.

كما نحمد الله الذى ألهمنا فهم قرآنه ولم يجعلنا ورثة الوثنية وأهل الكتاب والقائلين بعصمة الأئمة الذين يحرفون الكلم عن موضعه ويؤولون آياته المحكمات.

رأى الجميع أن على الليثى الخارجى يوجه جند تعصبه إلى صفوت غانم حامل لواء تيار السلفية وأهل السنة والأمير الإمام لولاية قصر النيل وإلى حسين الصيفى حامل لواء التيار الشيعى والأمير الإمام لولاية السيدة زينب.

استكمل خطبته موجهًا سهمه الأول إلى صفوت غانم:

- إن ساكن بستان قريش شيد قصرًا فى سفح الهرم ملأه بالقيان وملك مصارف المال واحتكر عروض التجارة ويطمع فى الإمامة الكبرى ليحولها إلى ملكية وراثية ووجد فى ذلك أعوانًا يؤازرونه من بلاد الكفر فى أوربا وأمريكا والكفار أبناء سعود الذين تتضخم صدورهم وشرايين أجسادهم بدماء الهند الوثنية. ويدنسون أماكن نزول الوحى بوجودهم الخبيث.

أطلق سهمه الثانى إلى حسين الصيفى قائلاً:

- أما هذا الذى أحيا تراث الصابئة والمجوس وعبدة الكتاب ويمهد لصاحب الزمان المنتظر والإمام الشرعى والحجة والوصي ويضع أمام بيته فى حارة الميضاة فرسًا أبيض مهيأ للإمام الغائب فأنا أقول له انتظر ما شئت ومن شئت فالغائب وهم والغيبة خديعة والستر ضلال وخداع فلا غائب ولا مستور، وإلى الله النشور.

اشتدت نبرات صوته وهو يرتل:

﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج، إنا نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾.

﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾.

قال هذا وهو يلوح بمطرقة ويحث أتباعه وجنده على هدم الأضرحة والمزارا ت علق أحد أتباع حسين الصيفى:

- ليقيم على أنقاضها دولة الخوارج فى مصر.

اندفعت جموع أتباع على الليثى إلى شارع الصليبية حيث يوجد ضريح لشخص مجهول وفى غضون أقل من ساعة حطموا المشهد وسووه بالأرض واندفعت الجموع إلى شارع «مراسينا» تبغى مسجد السيدة زينب وهى تردد:

«الله أكبر.. الله أكبر».

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وفى نهاية الشارع توقف سيل البشر أمام متراس صفه رجال التبرئة بدروعهم البلاستيك وخلفهم وقف أتباع حسين الصيفى بملابسهم المميزة وهم يرددون:

«وا كربلاء.. وا ثأراه.. لن ندع الخوارج يسفحون دم آل البيت مرة أخرى».

تطايرت العمائم السوداء التى وضعها رجال على الليثى والعمائم الخضراء التى وضعها اتباع حسين الصيفى وأخيرًا أفلح رجال التبرئة فى فض الاشتباك الذى استخدمت فيه المدى والعصى.

اختفى حيدر سامى فى ملابس تتكره فوق سطح مدرسة محمد على الابتدائية وشعر بالرضا والسعادة بعد نجاحه فى تصوير أحداث يوم الاثنين الدامى كما أطلق عليه أحد أتباع حسين الصيفى!

وشعر بالخوف عندما سمع أحد رجال على الليثى يقول حانقًا:

- أف لقهر المكان فى مصر والظروف التى لم تسمح لنا باستخدام الدبابات لسحق قوى الوثنية.

شعر حيدر بالظمأ والجوع فلم يجهد رأسه وفى خلال نصف ساعة كان يدخل فى نعيم بنات اللوزى راويًا ظمأ حلقه وقلبه ووجدانه.

(١٦)

فى ميدان زين العابدين وقف شاب ممتلئ الوجه تشوبه سمرة خفيفة بلحية سوداء مستديرة يلوح بعصا معقوفة وهو يرتل:

﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾

قال سائق تاكسى وهو يفر بسيارته وفى داخلها حيدر سامى متحفزًا:

- سيكون يومًا سيئًا من فجره حتى مسائه.. علام يتفاءل ذوو اللحى

والشعب يموت أفراده جوعًا ورعبًا!

اتجه بسيارته يبغى العبور إلى شارع قصر العينى ولكنه تراجع لإغلاق الطريق بركام الكوبرى الذى نسفه أتباع على الليثى لقطع سبل الاتصال بين أتباع حسين الصيفى وأتباع صفوت غانم. رجع إلى الميدان مرة أخرى فوجد حلقة المستمعين للشاب صاحب العصا تزداد نموًا. شعر باليأس وهو يرمق حيدر سامى كأنه يسأله الشورى فى الإفلات من الحصار. ركن السيارة بجوار الرصيف وشارك حيدر فى الإنصات للشاب وهو يقول بصوته الجهورى المتمكن بلا زيغ أو اختلال:

- أنا المهدى المنتظر.. أنا خليفة الله على الأرض.. أنا صاحب الزمان.. انظروا، هذه هى العلامة والبشارة.

أشار إلى «وحمة» تتصدر جبهته واستمر قائلاً:

- أنا من قال عنه رسول الله «المهدى رجل من ولدى وجهه كالكوكب الدرى، اللون لون عربى، الجسم إسرائيلى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا، يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض والطير فى الجو، يملك عشرين سنة، وأنا الآن فى العشرين وسأحكم عشرين وأصعد إلى السماء فى الأربعين».

صمت برهة ثم تناول قفصًا به سرب من الحمام الرمادى المطوق وبدأ يناجى وينادى أفراده وأمسك حمامة وأخرجها من القفص وهو يخاطبها متهدج الصوت:

- أنت.. يا من صاحبت نوحًا فى فلكه؟!

اتجه إلى الحشد قائلاً:

- أسمعتم.. الورقاء تقول نعم!!

- أين كنت تعيشين منذ الطوفان؟!

- سمعتم الورقاء السماوية تقول:

عشت فى بيوت الأنبياء والصالحين والمستضعفين والفقراء منذ الطوفان وحتى الآن.. أرأيتم كيف تقبل أصابعى وتشهد بأنى المهدى

المنتظر وأن المهدى قد جاء.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتناول حمامتان ويصرخ بصوت جيد الصنعة:

- هاتان الحمامتان عاشتا فى الجنة.. بعد أن شيدتا العش على باب غار ثور وأنقذتا الدين والرسول بأمر الله وجاءتا الآن لتبايعا المهدى الذى جاء.

أنهى لعبة الحمام كما قال حيدر سامى وأخرج علبة من البلاستيك الشفاف تسعى بداخلها مجموعات من النمل ورفع العلبة الضئيلة فى راحة يده وهو يشير نحوها قائلاً:

- انظروا لهذه النملة.. إنها نملة سليمان التى حذرت من جبروته وجبروت جنده!

وضع العلبة بجوار أذنه ثم قال صائحًا:

- سمعتم ماذا تقول.. تقول إنها وصويحباتها شهدت بناء الهيكل وشاهدت تدميره وصاحبت بنى إسرائيل إلى السبى البابلى وعاشت على فتات مائدة غانية بنى إسرائيل التى فكت أسر قومها وأنقذته من الفناء والامتزاج والذوبان فى شعوب الأرض.

إنها تشهد بأنى المهدى المنتظر وأنى جئت.

لوح بعصاه زاعقًا:

- هذه عصا موسى التى شهرها فى وجه الإفك والبهتان فخر له السحرة صاغرين.

قال هذا وبحركة بارعة أخفى عصاه فى جراب طويل وأخرج ثعبانًا فدب الذعر فى المحيطين بهم فأمسك بالثعبان ووضعه حول عنقه وهو يخاطبهم بصوته الجهورى:

- يا أهل المذبح وزين العابدين جئت لكم من الأزل، هؤلاء شهودى.. جئت لكم من الأزل.. رأيتمونى فى شعاع الشمس وفى ضوء القمر وفى قطرة المطر.. تذوقتمونى فى رشفة الماء، فى نضج الثمر، فى يناعة

الزهر.. عشت بينكم ومعكم فى أصلاب أجدادكم وجاءت اللحظة ليتكلم شعاع الشمس وينطق ضوء القمر وتتحدث النطفة فى الأصلاب بعد أن ساد الجور وتسيد الظلم.

أنهى حيدر سامى تصوير فيلم نادر عن المهدى المنتظر وهو قابع فى التاكسى وعندما لمح رجال على الليثى يهبطون بجيادهم ودراجاتهم النارية من الشرق ناول السائق نصف براءة عملة فضية ضربت فى عصر التبرئة وقال له يستدرجه للإفصاح عن وجهة نظره:

- هيا بنا لقد سئمنا من رؤية مهدى يصلب كل يوم.

عقب السائق بيأس:

- الطرق جميعها مغلقة!

- أعرف طريقًا يؤدى إلى المعادى!

رمقه السائق بشك وعتاب وعندما عبرا حدود ولاية على الليثى تنفسا بارتياح بعد أن أصبحا داخل ولاية المعادى وحلوان. التى يدين أميرها الإمام بالولاء لفكر حسين الصيفى الشيعى. بلغا طريق الكورنيش حيث انتشرت مشارب تقدم البيرة التى كانت مثار هجوم على الليثى فأطلق عليها «الأبلة الجديدة».

قال حيدر سامى:

- حرام أن نمر على «الأبلة» ولا نروى ظمأنا!

دخلا مشربًا جيد التجهيز . أجفل السائق عندما رأى المكان غاصًا برجال التبرئة وقد افترشوا الأرض حول زجاجات البيرة تطوف بينهم ساقيات يرتدين ملابس خضراء اللون خفيفة تمتد حتى أسفل الركبة ووضعن على وجوههن براقع خفيفة تضفى على نداء عيونهن فتنة لا تقاوم.

أشار حيدر إلى إحداهن فاقبلت تتأود بخلاعة وعندما أصبحت فى مواجهته زحزحت نقابها وهمست بسفور:

- أتريدها ساخنة.

أجاب حيدر بحذر:

- ليس الآن يا حمقاء أريد زجاجتين باردتين.

أحضرت له الفتاة طلبه، رفض السائق مشاركته وظل بصره معلقًا بالبقعة التى يحتلها رجال التبرئة بهرجهم وزياطهم.

- لماذا.. نكاد نموت رعبًا.. إنهم ذاهلون عنك وعن عصرهم.. انظر.

أشار حيدر إلى مجموعة أسفل إحدى أشجار الكافور التى مازالت يانعة رغم عصر التبرئة يدخنون الحشيش.

هب السائق مذعورًا وهو يقول:

- أنفد بجلدى أفضل.

نادى حيدر على الفتاة الساقية وقال لها مغازلاً:

- يبدو أن الجلوس على الأرض أكثر تقوى.

طلب منها نقل زجاجات البيرة والمزة على الأرض، رمقته بدهاء وهو يختلس النظر إلى ساقيها وهى تؤدى مهمتها بتسكع. وأخيرًا تساءلت بخلاعة:

- أى خدمة أخرى أؤديها؟!

- نعم!

أشارت إلى الشمس وهى تكاد تختفى غرب النهر الجاف وقالت بدلال وتمنع كاذب:

- كيف.. والشمس الحمراء تكشف كل شىء.

- ستموت بعد لحظات وسيحل الظلام.

أجابت ممعنة فى التدلل!

- لدينا من الشموع الكثير!

آه من الشموع ورائحتها وحمايتها الدائمة لكل العشاق على مر العصور.

غابت الشمس وفى جوف خندق حفر فى ضفة النهر الجاف وفرش بالحصير القطن، أراح حيدر رأسه المرهق على فخذ الساقية العارى.

(١٧)

توافد الأمراء الأئمة من جميع أنحاء ولايات مصر منذ الصباح الباكر بعد إعلان وفاة أمير الأمراء الأئمة الذى أعلن اسمه لأول مرة منذ ما أسموه حقبة الفتح الثانى وعصر التبرئة وأغلقت جميع المنافذ التى تؤدى إلى بيت الحكم الذى اتخذه عثمان الطحاوى أمير الأمراء الأئمة مقرًا فى منطقة جاردن سيتى أو حديقة المدينة.

وقف حيدر سامى أسفل شجرة مانجو ضخمة متنكرًا فى هيئة رجل من رجال التبرئة القادمين من ولايات الصعيد فى صحبة أمرائها وعندما رأى على الليثى بقامته الفارعة وثيابه الخشنة توارى كأنه يخشى أن تكتشف عيناه الرهيبة الثاقبة تنكره، وارتفعت أصوات الأمراء الأئمة لولايات الصعيد وأتباعهم تستقبل على الليثى بحماس تبايعه وتنصبه أميرًا للأمراء.

مكث فى مكانه حتى رأى موكب حسين الصيفى المميز وقد تقدمته هذه المرة سيارة نقل أمريكية فاخرة يرى منها الجواد الأبيض مطية المهدى وحجته الشرعية ومناط الوصية فى خلافة أمير الأمراء وفى أعقاب موكبه توالت سيارات الأمراء الأئمة لولايات الدلتا الذين يعدون من أنصار حسين الصيفى وشيعته.

تحرق حيدر سامى وهو يشحذ ذهنه للعثور على وسيلة يدخل بها إلى القاعة الرئيسية حيث يرقد جثمان أميرهم، ولكن الحراسة المشددة من رجال على الليثى أحبطت وسائله.. أخذ يدور حول شجرة المانجو العتيقة التى تزين حديقة قصر الدوبارة الذى كان مقرًا للمندوب السامى البريطانى منذ عشرات السنين. ظل فى مكانه حائرًا حتى رأى الأمراء الأئمة لولايات القلزم (قناة السويس) وميناء الساحل الأول (الإسكندرية) والذين يمثلون التيار العقلانى أو كما أطلق عليه أحد المحللين بأنهم يمثلون تيار المعتزلة فى عصر التبرئة.

رأى سعد الدين الترزى الأمير الإمام لولاية غرب الساحل الأول وزميل حانات ميونخ والسابح فى بحار الفلسفة الألمانية وربانها العنيد المتشائم «نيتشة» ويدو أنه صدقه وانتظر مولد الحضارة الجديدة فى مصر. اقترب منه، فأجفل ثم ابتسم بارتباك حتى لا يثير ريبة أحد. اندس فى معيته، مسح القاعة بنظرة فاحصة ورأى جثمان أمير الأمراء الأئمة ملفوفًا فى ثوب من الدمور ومسجى على أريكة مذهبة وعلى الليثى يتصدر المكان وما أن رأى الأمراء الأئمة لولايات السويس والإسكندرية حتى صاح فيهم مشيرًا إلى الجثمان:

ـ كاد يتعفن.

انفجر بعض رجال التبرئة وأتباع أمراء القناة والإسكندرية فى البكاء فنهرهم على الليثى قائلاً:

ـ ليس منا من يبكى على رأس الميت ويلطم الخدود ويشق الجيوب، ليس منا عبدة الأجساد.

أشار بإصبعه فتقدم عشرة رجال من أتباعه وحملوا الجثمان إلى الخارج وعندما غابوا عن العيون بحمولتهم قال بصوت هادر:

ـ ﴿ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾.

لقد حانت اللحظة وعلينا أن نختار ونبايع أمير الأمراء الجديد بل حانت اللحظة وملك عصر التبرئة ناصية الأمور فلنختر أميرًا للمؤمنين.

انبرى حسين الصيفى هاتفًا:

ـ يا رجال الفتح الثانى لمصر يا رجال القاهرة أيها المهتدون المهديون أيها المتشيعون للنطفة الطاهرة لقد أوصى الراحل الكريم لمن يخلفه كما أوصى سيدنا محمد ﷺ لعلى يوم غدير «خم» وكما أوصى سيدنا إبراهيم لبنيه وكما أوصى موسى ليوشع بن نون. لقد أوصى لى الراحل الكريم يوم افتتاح مسجد التبرئة الكبير.

قاطعه على الليثى بغضب قائلاً:

ـ ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾.

والله يابن الصيفى إنك توقظ الفتنة.

حملق حسين الصيفى فى وجوه الحاضرين ثم هتف بيأس:

- قلوبكم معى وسيوفكم معه أليس كذلك!؟

لم يمكنه على الليثى من الاستطراد وأمر رجاله باعتقاله وأمر بإحضار الحصان الأبيض وذبحه بيده على مشهد من الجميع وتدفقت دماء الحيوان وصنعت بركة صغيرة. أفلت حسين الصيفى وانكب على البركة القانية وغمر وجهه فى الدماء الساخنة وهو يبكى ويعول ويصرخ:

- يابن الليثى، دم الحصان الطاهر على رأسك ورأس الأجيال القادمة التى سيتدفق فى عروق أفرادها دماؤك النجسة.

(١٨)

ضاقت السبل بحيدر سامى وضاق بها، إن أفكاره التى تدور فى رأسه تراقب بصورة أو بأخرى وإن «الكاميرا» التى يحملها بين جوانحه تتجسس عليه وتلتقط لمشاعره صورًا لو وقعت فى يدى على الليثى لوقع عليه كل العقوبات التى فرضها على أعداء العصر ابتداء من الشنق مرورًا بالرجم إلى تمزيق الأحشاء بالخازوق عقوبة أسلافه الترك المقدسة، فقد كان انحدار على الليثى من أصول تركية سلاحًا اعتبره خصومه على درجة كبيرة من الفاعلية يمكن لهم الوقوف فى وجهه ولهذا السبب نشط علم الأنساب فى عصر التبرئة وحفر بؤرة جديدة من بؤر الصراع التى غطت أرض مصر من أسوان إلى الإسكندرية وتبشت قبورًا لعلى الليثى وتياره، وفوجئ أعداؤه بأنه انتظرهم عندها وواراهم الواحد تلو الآخر التراب، وكان منهم سعد التهامى بتقواه الحقيقية وولائه الأصيل وطهارته التبشيرية. فلو كان هو كل عصر التبرئة لآمن به حيدر سامى بلا تحفظ وجند آلة تصويره لتنقل إلى العالم صورة النبى الجديد

الذى يبشر بدين قديم ويبعث نصوصه ويزيل عنها محن الأهواء. ولكن سعد التهامى قتل؛ قتله على الليثى، وتحول حيدر سامى من ناقد ومصور ومنتقد لعصر يشارك سعد التهامى فى إرساء دعائمه إلى عدو للعصر الذى ضعه على الليثى على أكتافه يهتز به ويهزه على رءوس الجميع، ولقد كان بمقدور حيدر سامى الاختفاء واللجوء إلى ولايات مصر النائية هربًا ولكن ميله الانتحارى فى البقاء بجوار محرك الأحداث وطاغيتها أصابه بالعناد فقال لأحد أصدقائه الكثيرين عندما نصحه بمغادرة القاهرة أو مصر كلها إن استطاع: وهل أترك الفرصة التاريخية فى أن أشهد انفجارًا ذريًا وأسجل للعالم آثاره. ولم يتراجع وصديقه يحذره بقوله: لا أمل لمن يعيشون فى حمأة الانفجارات النووية.

لم يجد حيدر ملاذًا آمنًا غير ثريا اللوزى وفيلتها الفاخرة فوق هضبة المقطم التى شيدها لها أحد رجال حسين الصيفى الذى قُتل مشنوقًا وسيده فى ميدان ابن تيمية فى شهر مايو الماضى.

توجه إلى الفيلا التى شهد مع ابنة اللوزى فى أرجائها الرائعة أيامًا أكثر روعة، وكلما اقترب منها تخلص صدره من بعض ما يثقله من هواء أمسية تلك الليلة من ليالى صيف يوليو وقد تخلص فوق الهضبة من آثار مخالب الشمس الناشبة فى أهل الوادى تعذبهم فى كل لحظة حتى وهى تختفى فى الغرب بوجهها الشرس الذى لا يرحم مثل على الليثى بسحنته البيضاء الوحشية، ووجوده الأبدى كأنه الشمس فصولها الأربعة صيف. رغم الظلام لمح أكثر من حارس، تسلل إلى سور الفيلا القصير وأصبح داخل بنائها الذى يعرفه جيدًا واتجه بغريزته إلى الدور العلوى حيث حجرة نومها ورآها على ضوء مصباح كهربائى يستمد طاقته من مولد لم يصبح لأحد فى عصر التبرئة حق امتلاكه سوى الأمراء الأئمة كالسيارات الخاصة وغيرها التى اعتبرت حيازتها لغير الأمراء الأئمة ردة إلى عصور الجاهلية والظلام. وقد سأل صحفى أمريكى أحد أعضاء مجلس تأليف القلوب عن الرأى فى حظر امتلاك هذه الأشياء

على الشعب وقصرها على الأمراء والأئمة فأجاب بأن الأمراء الأئمة ذوو عزم يعرفون كيف يدرءون خطر وسائل الغواية التى يحيكها الشيطان لأبناء الشعب جيدًا.

كانت ثريا اللوزى فى أبهى صورة فسألها متهكمًا:

- لا تقولى أن هذا الاستهواء من أجلى؟!

- أخيرًا جئت برجليك..

- جئت غصبًا..

- أيها الزنديق..

- أيتها التقية.

- المرأة هى المرأة.. معبدها الوحيد جسدها.

حاول تقبليها، تراجعت قائلة:

- ليس الآن..

- لِمَ؟

- أنتظر!

- من؟! زوجك.. صاحب الكرامات شنق.

ابتسمت بمجون وقالت:

- قاتل زوجى.

ارتعد حيدر سامى. أخفى بجهد بوادر الذعر التى دهمته مستعينًا بسعادته للفرصة الهائلة التى أتيحت له ليرى على الليثى مارد عصر التبرئة مجردًا من ملابسه وهو الذى أحاط نفسه بدروع من ادعاء الزهد والتنسك والتشدد مع مقترفى الكبائر.. الزنى يا من تشدقت بالقول إذا كان الهواء يمر على زناة أموت اختناقًا ولا أستنشقه.. يا من قلت إذا كان الماء يمر من تحت عتبات بيت زناة أموت عطشًا ولا ألمسه بطرف لسانى.. إنك الآن تتحرق إلى عادم هواء من صدر سيدة زناة عصرك القبيح.. إنك الآن تتطهر وتتجرع وتطهو طعامك بماء ثريا اللوزى يا أمير الأمراء الأئمة.

يا من تحلم بإحياء الخلافة واعتلاء سدتها.

قال حيدر سامى:

ـ أدفع بقية عمرى وأراه فى فراشك يا ابنة اللوزى!

حاولت دفعه إلى مخبأ آمن ولكنه تشبث فى مكانه ثم انزلق أسفل المخدع، سمع على الليثى بصوته المبلل بالوحشية والدهاء وهو يلوم ثريا:

ـ أيتها الثريا مازلت بملابسك..

حبس حيدر أنفاسه وملابس المرأة تسقط أمام بصره يفوح عطرها العبق الثرى وصوت عبدالوهاب يشدو بأغنية يا جارة الوادى الأغنية المفضلة عند على الليثى وإحدى الأغنيات القليلة التى سمح بسماعها فى عصر التبرئة. وما أن بلغ المطرب فى شدوه:

« لم أدر ما طيب العناق.. حتى ترفق ساعدى فطواكِ».

ارتفع صوت على الليثى:

نعم يا ثريا لم أعرف لذة عناق المرأة إلا وأنت فى أحضانى.

ـ عانقت نساء أخريات.. زوجاتك؟!

ـ منذ عصر التبرئة لم أعرف سوى أمهات الأولاد الأربعة اللاتى يتخبطن فى سراويلات «البفتة».

ـ وقبل عصر التبرئة؟!

ـ لم يكن لدى مال أو وقت كنت مشغولاً بتحطيم الأصنام..

وبحس الغانية لم تترك لمدرس التاريخ السابق فرصة السقوط فى شهوة الإحساس بالسلطة واجترار تاريخ اعتلاء قمتها.

ـ إنس أنك أمير الأمراء مادمت معى.

ـ نعم.. دعينى ألحق ما فاتنى فى منتجع اللذة هذا..

لم يعد يصل إلى سمع حيدر سوى تأوهات ثريا التى يفهم جيداً زواياها المؤثرة وأن الزاوية التى التقطتها أذناه تفصح عن أن على الليثى رجل.. زئر نساء من الطراز الأول أنسى ثريا أن هناك منافسًا رقيبًا أسفل الفراش.. إنها تلح على الرجل الذى تخافه وتكره جيرته أشجار

وأحجار مصر وتنسى وتناسى كل شيء ليظل معها حتى الصباح.. حتى الصباح يا ابنة اللوزى.

سمعها وهى تغريه بالبقاء لمشاهدة فيلم «فيديو».

وصوته وهو يقول غير جاد:

- لو علم رجال الأمر بالمعروف بأمر الجهاز والفيلم لرجموك.

- أنت كل رجال العصر. هل يطاوعك قلبك؟!

- نعم.

ذابت صلابة على الليثى المزعومة بحرارة عناق ثريا. علق حيدر:

- يبدو أن ابنة اللوزى ستنتقم لضحاياك أيها السفاح.

مكث فى مكانه أسفل منتجع اللذة وكل حواسه ترصد ما يدور فوقه وعين «الكاميرا» التى علقها «بالأباجورة» تصور وتسجل حتى سمع أذان الفجر وصوت أقدام على الليثى وهو يغادر الحجرة وموكبه وهو يغادر الفيلا.

خرج من مخبئه وهو يحملق فى جسدها المتهالك:

- كاد يلتهمك أمير الأمراء.

همست بإعياء:

- ضمنى إليك.

- ما يزعجك.. استرح حتى أعود..

- لن تطهرك كل مياه مصر القليلة وعطور باريس الكثيرة فى حمامك.

- لا تكن غبيًا.. أتغار؟!

- ليست غيرة بل اشمئزاز.. ولكن سأضطر إلى اللوذ بحماك لمدة ثلاثة أيام على الأقل.

- أخبئك فى قلبى.

(١٩)

جلس إسماعيل التهامى يرمق مجرى النهر الجاف من شرفة منزله بالوراق وشعر برأسه حقًا كثمرة جوز الهند، تشبيه أطلقته عليه فى طفولته زوجة أبيه الثالثة وظل التشبيه حيًا طوال فترة الطفولة والصبا أيام عدم السماح بنمو شعر الرأس بأكثر من ملليمترات قليلة. لاحت أمامه تشمخ فوق مجرى النهر الجاف نخلة آل التهامى التى كان ثمرها دواء وشفاء للأسرة والعشيرة والحارة وأهل الحى.

انتهك بصره ضوء أصفر باهر كاشف أحال ثمرة جوز الهند إلى بللورة سحرية لم ير فيها غير وجه زينب أكثر خصبًا وسخاء من النهر قبل موته وأعظم إشراقًا من الشمس التى فقدت مبرر وجودها وغابت لتشرق ميتة تعذب بأشعة احتضارها موتى.

أحس بأنفاسه يكاد يغص بها حلقه.. لا يريد أن يتخيل زينب مسجاة فى الحجرة المجاورة تعذبها حمى عصر التبرئة الكاوية «حمى السوط».. جسد زينب العظيم تجلده سياط حمى الموت ولا يستطيع لها علاجًا. أغمض عينيه ولا فائدة، لقد اشتبك مع طبيب مستشفى «الأرقم» وهو يشخص مرض زينب ويحرف تسمية الحمى وأطلق عليها اسم حمى الشيطان وأنها لا تصيب سوى الخطاة، والعصاة، أزينب خاطئة أيها الجزار؟!

وكاد ينقض على عنقه احتجاجًا فمن أنفاس زينب توضأ وفى محرابها كفر عن سيئاته، من همساتها استنشق طهارة الغفران وحرارة التوبة.. أرست فى قلبه دعائم دين جديد لم تعرفه النبوءات الأولى، ليست امرأة كعوراتك أيها الطبيب الملتحى، لقد تعلم من زينب أن المرأة ليست عورة بل هى التعريف الحى للحق والخير والجمال، إنها ليست كزوجات أبيه.. كلماتهن إثم.. تحركاتهن خطايا.. نظراتهن سوءات.. سكناتهن رذيلة. أما زينب فكلماتها أناشيد حقيقية لعصر الخلاص

والتبرئة الحقيقى.. تحركاتها تجسد حلم الفردوس.. نظراتها نهر من الحنان والمودة.. سكناتها سؤدد ومؤازرة. كل هذا بعض من زينب وزينب كل هذا.. الحياة الجميلة الموحية بلا منغصات أو إحباط أو سأم.. زهرة أريجها ويناعتها لا تتضب.. طعام لا ينفد.. شراب لا يفنى.. غريزة ذات إشباع دائم، مايزال صوتها مغردًا فى سمعه ولم يكف قبل عصر التبرئة وبعده يتفوق على أصوات الطيور الغناء فى حدائق الزمالك، كم تجولا فى رياضها ولا يملكان حجرًا فى أفنيتها أو ورقة فى أشجارها ولكنه بوجود زينب بجواره امتلك كل حدائق الزمالك بأشجارها وزهورها وطيورها بل امتلك العالم كله. لقد سألها يومًا وقد سمعا صوت شجار ينبعث من أحد مساكن الأثرياء: ما الذى يجعل سكانه يتشاجرون؟ فأجابته يومها وهى تضحك بعذوبتها وحكمتها: لأن أحلامهم تحققت بالكامل. لقد علمته كيف يرى النيل ويعشقه والزهر يتأمله، حتى الأحجار كشفت له رموز جمالها.. زينب وجدانه الأسمى.. عقله الأرقى.. مدرسته وعمله ورسالته التى وا أسفاه لم يستطع أداءها كما يريد وكما تستحق، فقبل عصر التبرئة لم يتمكن من توفير مسكن يضمهما والآن وهما يعيشان عصر التبرئة لا يستطيع حمايتها من سياط العصر الدموية.

أحس بمذاق دموعه الملحى والعرق الساخن يرطب جبهته وسمع صوت ابنه يأتيه من عالم زينب الفردوسى:

- لا تبك يا أبى.. عمى سعد لم يمت.. هكذا قالت أمى زينب.

احتضن ابنه بعنف أساء إليه فحاول التخلص بجهده الطفولى من ذراعى أبيه، فخفف إسماعيل من ضغط خوفه وحنانه قائلاً:

- نعم يا هيثم.. لم يمت عمك سعد وماما زينب صادقة.

تراجع هيثم وقال بسذاجة:

- لا تقل ماما.. قل أمى. لو سمعك الداعية ثابت لعذبنى.

ابتسم إسماعيل بمرارة قائلاً:

- ماما .. أمك، إنها زينب.

ذبلت الابتسامة واستفحلت المرارة وهو يرى ابنه هيثم يهب فور اندلاع أذان المغرب من عشرات مكبرات الصوت التى تحيط الحى بضجة عالية تعتقل السمع والعقل والبصر. أشفق على وحيده وهو يعدو مذعورًا إلى الحمام وفهم مقصده فناشده متوسلاً ألا يبدد الماء علاج حمى السوط المؤثر، تراجع هيثم وهو يتعثر بين شبح الداعية ثابت ووعيده الحارق لمن تخلف عن الوضوء والصلاة، وبين حبه الفطرى الطاهر لأمه وحاجة مرضها القاسى لكميات المياه، توقف فى منتصف الردهة وغطى وجهه بكفيه الشديدتى النحول والبياض وخيل لإسماعيل أنه سيسقط فهرع إليه وأمسكه من كتفه وقال بحنان:

- جهز الماء لماما تراها الآن استيقظت.

قال هذا وهو يرجو ألا تكون الضجة المفزعة أيقظتها. اقترب من حجرتها وشعر بمقبض الباب باردًا يسلبه الشجاعة، وبعد تردد فتح الباب ورآها، رأى زينب تجلس على المقعد المجاور للفراش ووجهها الذى علمه العشق والحنان تخلص من براثن «حمى السوط» اللعينة التى لم تقدر على انتهاكه أكثر من أيام قلائل ولكنها أفلحت فى استيطان جسدها الفذ وأنهكت بجحافلها المغتصبة ربوعه الطاهرة.

عندما رأت إسماعيل ابتلعت آلامها المبرحة وأسدلت عليها نبرات صوتها القوى الذى مازال يفتن أسماعه ويجد فى رضابه متنفسًا لحزن الأيام وعذابها. سألته بحنان ورفق:

- أين هيثم؟!

- إنه يجهز لأمه.. حياته الماء..

- أرجو يا إسماعيل أن تدخر كل نقطة ماء لكما.. لم أعد فى حاجة إليها.

فطن إلى تأويل كلماتها ومغزاها الكارثة، حاول كبت دموع فجيعته وحزنه ولم يفلح فى جرف ضوابط مشاعره الأسمى"فانخرط فى البكاء.

حاول مغادرة الحجرة فنهضت إليه زينب وطوقته بذراعيها اللتين لم ينل من جمالهما فى عينيه خطوط السياط القبيحة قبح فقد النهر ماءه وقالت بصوت ناعم:

ـ لا تحزن يا إسماعيل.. هيثم فى حاجة إلى صلابة عودك.

جلس على حافة السرير ورأى آثار «الحمى على ساقى معبودته وقد تحولت خطوطها العريضة من اللون الداكن إلى اللون النارى بحواف فسفورية.. إنها أعراض الموت التى تفرزها الحمى القاتلة، احتضنها بعنف كأنها يحميها من مصيرها ومصيره المحتوم قائلاً بصوت مختنق:

ـ لن أسمح لأية قوة أن تنتزعك منى.

شعر بأنفاسها الحارة تغمر رأسه بالحنان وتمده بهدوء وسكينة لم يتذوق مثلاً لها من قبل منذ تذوق مشاعر الآخرين حتى من أمه التى لم يكن لديها وقت لإذاقته حنان الأمومة، فقد كانت مشغولة بإرضاء أبيه ومنافسة ضرائرها.

تبددت قليلاً قتامة الموقف بصوت هيثم وهو يخبر أباه بحضور حيدر سامى. تأمله إسماعيل مليًا وقد لاحظ شحوبه وفوضى شعر رأسه ولحيته وهو المعروف بأناقته فابتدره بحدة لم يتعمدها:

ـ أصبحت حرفتك صناعة الخطر يا حيدر.

أجاب حيدر بتعبيراته الصريحة.

ـ إذا كان وجودى يسبب لك القلق أغادر بيتك فورًا.

تذكر آراء زينب فقال باقتناع مسترضيًا صديقه:

ـ الخطر ألا نخاطر.. بعكس الحزن فلا نستطيع إلا أن نحزن.

سمع حيدر فى صوته ضعف اليأس والحزن العميق وتكهن خطأ بمصدره.

ـ آسف لم تتح لى الأحداث الجسيمة والمطاردة المستمرة فرصة تقديم واجب العزاء.

استطرد حيدر مؤبنًا سعد التهامى:

- أنا مدين له بحياتى.. أنقذنى من براثن الطاغية على الليثى.. كانت لأخيك أخلاق الرسل يحلمون بالتغيير بدون إراقة زفرة ألم من مناهضيهم يغيرون بالكلمة أضعاف ما يغيره السيف، ولكنها حتمية التاريخ التى تجعل من الرسل شهداء ومن الطغاة حكامًا.. كان يحلم بشريعة نقية.. قتله من انتهك الشريعة وبدل السنة وسحق العقل والنقل معًا..

استنتج حيدر أن كلماته ذكرت إسماعيل بمصابه الفادح فقال مهونًا:

- اسمع يا إسماعيل.. لم يعد لوجودى مبرر.. لم أعد قادرًا على التصوير.. كل اللقطات سوداء.. وضع على الليثى كلمة النهاية للفيلم الدامى لعصر التبرئة.. الناس يموتون بالآلاف جوعًا وظمأ وتنكيلاً.. من العار تصوير احتضار شعب وأمة تحالفت ضدها عناصر الطبيعة.

همهم إسماعيل كأنه لايصدق توصيف الحال فى مصر وعصر التبرئة.

سأله حيدر عن زوجته وعندما أخبره بمرضها استفسر بحزن:

- بلغ أى مرحلة؟!

رأى بنفسه زينب ممدة على الفراش تحتضر وقد تصلبت أطرافها وتحجرت خطوط السياط على رقبتها ولكن مازالت عيناها تفرزان نظرات مفعمة بالحب والحنان وعندما رأت حيدر ابتسمت ولم تقدر على النطق.

تراجع حيدر إلى خارج الحجرة وفى إثره إسماعيل وكان الموقف مزعجًا ثقيلاً غير قابل لتبادل كلمات المشاركة فكلاهما يسحقه الحزن واليأس.

ولكن حيدر استعاد رشده وإسماعيل يقول:

- أريد قنبلة زمنية يا حيدر.

فسأل متشككًا عما إذا كان إسماعيل انضم لجماعة من الجماعات العديدة المناوئة لعصر التبرئة وعقّب كأنه يحاور نفسه:

- الاغتيال لا يغير تيار العصور.

قال إسماعيل كأنه يتلو حيثيات حكمه:

- علمتنى زينب الحياة وهى الآن تحتضر.

ضيقت العبرات الخناق على صوته:

- أنت تعرف الآلام التى تعانيها.. ديناميت يتفجر داخل خطوط السياط التى تفترش جسدها الطاهر.. لا يجب أن نتركها فريسة لانفجارات عصر التبرئة.

صمت برهة ثم قال بثبات:

- سأموت معها.. لم يعد هناك مبرر للحياة.. غيابها الموت!

قال حيدر بمرارة وانزعاج:

- وهيثم؟!

- يذهب معك.

عاد حيدر يحمل ما أراده إسماعيل التهامى ودون أن يتبادل أى كلمة وضع اللفافة على المنضدة الصغيرة التى طالما جلس بجوارها إسماعيل يتأمل مشاهد الفناء من شرفة الوراق.

احتضن إسماعيل وحيده مودعًا وظل يتابعه ببصره وهو يسير قفزًا بجوار حيدر سامى. دخل حجرة زوجته وبعد لحظات دوى انفجار كعويل آلاف الحناجر، سمعه حيدر ولم ينظر إلى الخلف ودموعه تحفر لها مجرى فى أديم لحيته الشوكى وهو يقبض على كف هيثم بحنان وقوة وإصرار.

***

كلمة أخيرة

أهدى سطور هذه الرواية إلى أجيال مصر الشابة التى أضناها الأمل المشوب بالإحباط ملتمسًا منهم العذر إن لم يجدوا فى متنها ما قد يجول بخواطرهم أو يرنون إليه بأحلامهم، فالدافع إلى كتابتها هو نفس دافعهم إلى الأمل فى مستقبل أفضل والخروج بالوطن من مأزق التناقضات وتجنيبه المزيد من التناقضات والممارسات التى قد تقضى على البقية الباقية من الرجاء فيما لو استولت الجماعات المتطرفة على الحكم فى غيبة الظروف الطبيعية.

وأرجو أن يقدروا أن التصدى لهذا الموضوع فوق ما قد يحمل من مخاطر الإخفاق فى التعبير أو إثارة الخواطر فهذا التصدى فى حد ذاته دعوة للتفكير واستخدام العقل بدون حساسية أو تزيد أو ادعاء التشدد أو التظاهر أو التعصب المقيت الذى قد يضر بالفهم الصحيح للإسلام العظيم كما أضر بجميع الأديان والعقائد التى اكتوت الجماعات المؤمنة بها بآثار التعصب المدمرة.

وأرجو أن يغفر لى أننى تجرأت وتناولت هذا الموضوع الذى يتناول نهرى الحياة فى مصر نهر النيل والدين الإسلامى الحنيف.

كما أود أن أقرر بأنى لست من الدارسين المتخصصين للتراث الإسلامى بجوانبه الفلسفية والفقهية، بل والتاريخية، ولكنى أعتقد فى نفس الوقت بأن كاتب الرواية ليس مطالبًا بأن يكون متخصصًا فى هذا الفرع أو ذاك ليستطيع التعبير عن رؤيته العقلية والوجدانية للموضوع الذى يتصدى لتناوله.

وأود أن أعلن بأن أحداث هذه الرواية التى يغلب عليها التوقع الخيالى إن جاز التعبير ليست موجهة إلى تيار أو جماعة أو شخص بقدر ما هى موجهة إلى الغموض وغيبة الإدراك والانفعال الانتحارى.

كما أقرر بأن ما كتبت ليس لإرضاء سلطة أو جماعة بل بتصور لا أسأل عنه كما لا يسأل الشاعر الذى يصور أهداب حبيبته على أنها حراب تقتل ونظراتها سهام تدمى.

وإننى لأعتقد بأنه لم تعد هناك فسحة للاستمتاع بترف التسكع على الأطلال والبكاء واستقرار ما دثر منها وكفانا تجريبًا وانفعالاً وافتعالاً، فالتجريب قد يجوز مع علوم الطبيعة ولكنه لا يجوز مع العقائد حيث يؤدى الفشل فى إحراز نتائج إيجابية إلى كوارث أعتى وأعنف من كوارث فشل تجارب العلم.

إن إنجاز العقل بمثابة الثمار الطازجة التى تعيش عليها الشعوب وتتطور ، أما القديد والتفسيرات التى مضى على تعليبها الزمن فلا يعلم إلا الله أى أثر ضار يفرزه تعاطيها.

إن سطور هذه الرواية تؤيد سيطرة طهارة الدين والارتشاف من منابعه النقية ولكنها تنبه إلى أن طلب تحقيق المستحيل قد يؤدى إلى فقدان المتاح كما أن الإصرار على الارتواء من المنابع قد يؤدى إلى افتقاد المصب حتى مع ما يحتويه من شوائب وأدران.

وقد قال التاريخ كلمات كثيرة فى هذا المجال وكيف خصبت أنهار عديدة بدماء زهاد ونساك الإسلام الأتقياء.

المؤلف

المؤلف

- عمر كامل محمود
- صدر له الروايات التالية :

* آق سراى (جـ ١)، ١٩٧٠
* الحب والذويان.
* الإسرائيلية.
* المرأة وطائر الكوكو.
* نساء جيش الشرق ، ط ١، ٢٠٠٢
* ثقب فى قاع النهر ، ط١، ١٩٨٧

ط٢، ٢٠٠٣ ، مركز الحضارة العربية

* امرأة من عصر السادات، ط١، ١٩٨٨

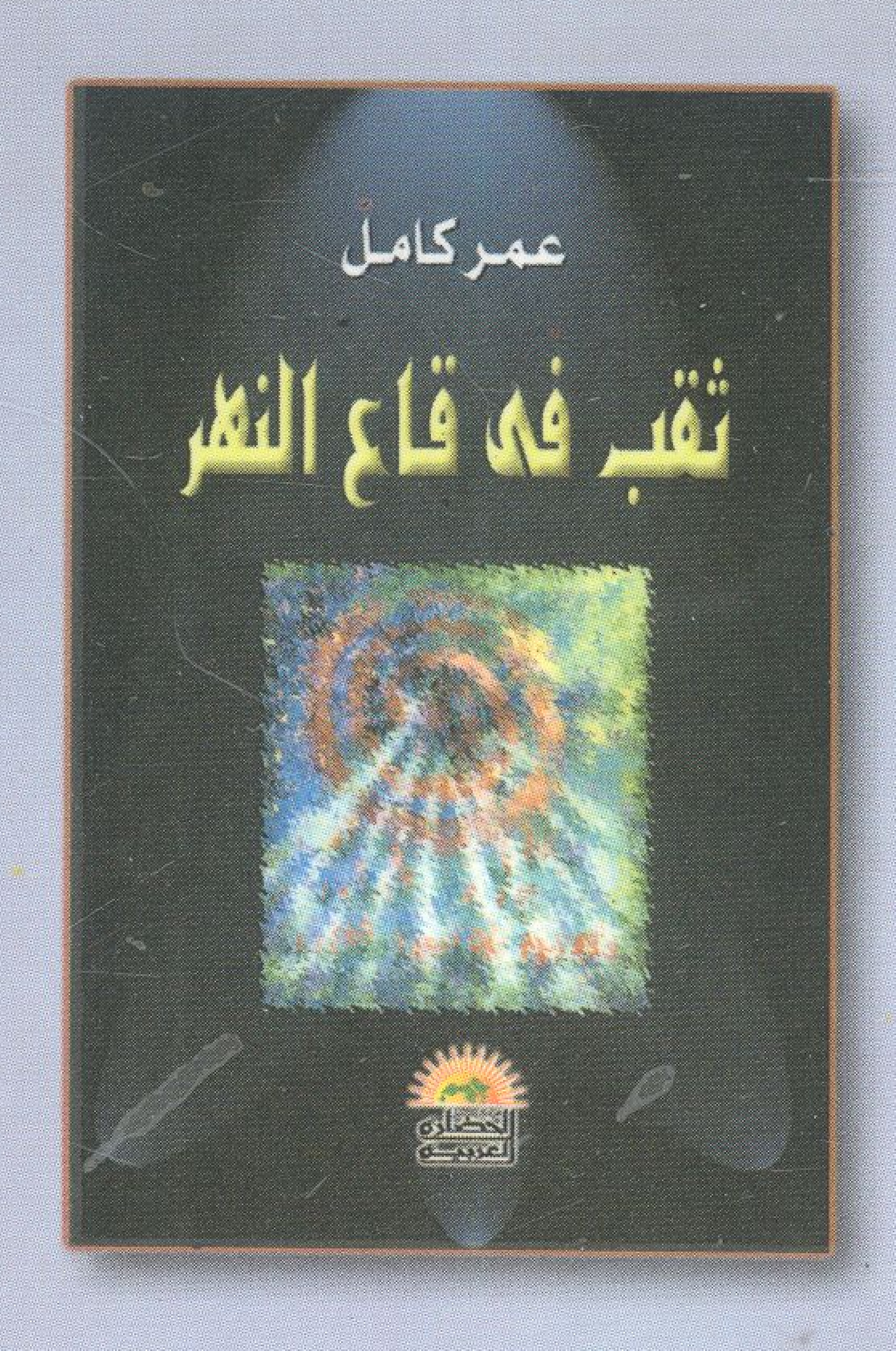
ط٢، ٢٠٠٣ ، مركز الحضارة العربية

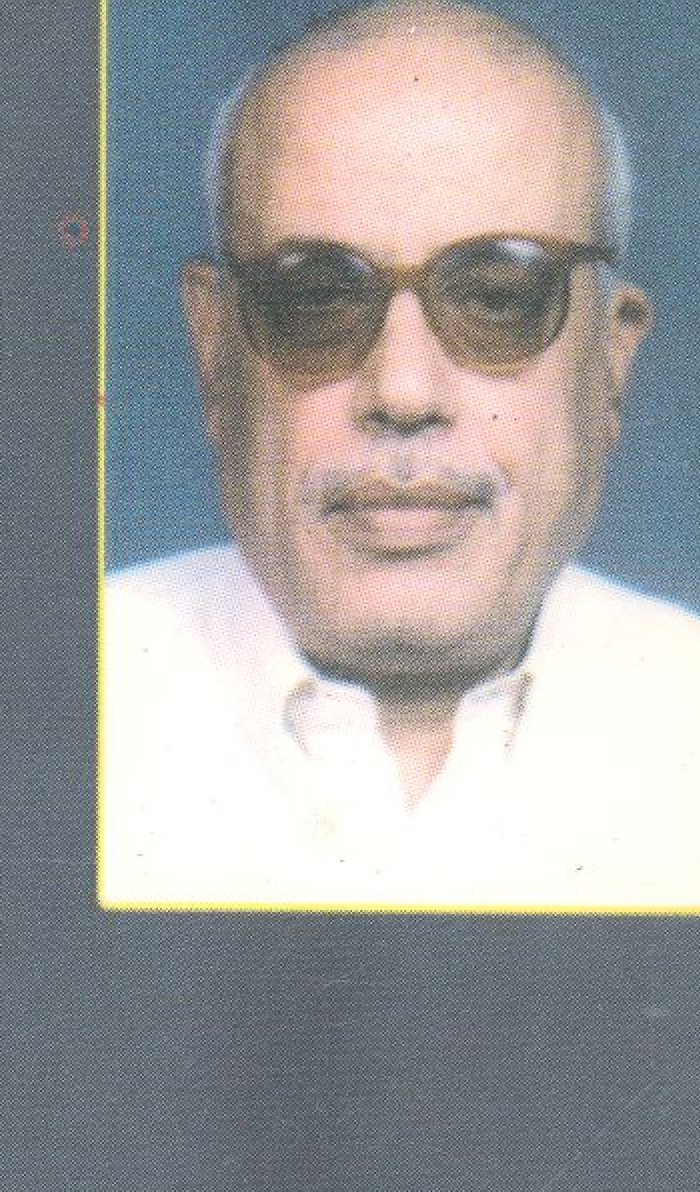
* قرار السادات الأخير ، ط١، ٢٠٠٣

ط٢، ٢٠٠٣ ، مركز الحضارة العربية

* أمير جماعة من عصر السادات ، ط١، ٢٠٠٣

ط٢، ٢٠٠٣ ، مركز الحضارة العربية





تعتمد هذه الرواية على فرض خيالى يتمثل فى نضوب نهر النيل - لا قدر الله - وما ينتج عن ذلك من آثار نستطيع تخيل جانب من أبعادها .

كما تصور كيف تستغل الجماعات المتطرفة التى تتستر بالدين الظروف الجديدة وتستولى على الحكم لتمارس سياسات تتعارض مع جوهر الإسلا
من حدة أخطار غيبة مياه النيل شريان
لوحدة الوطن المقدسة .

إن هذه الرواية بمثابة دعوة مخلصة
الوطن من احتمالات غيبة النهر ورزيئة

